❀ ❀ ❀

تفسير سورة الإنسان

وهي مكية. قد تقدم في صحيح مسلم، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾. وقال عبد الله بن وهب: أخبرنا ابن زيد: أن رسول الله ﷺ قرأ هذه السورة: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾، وقد أنزلت عليه وعنده رجل أسود، فلما بلغ صفة الجنان، زفر زفرة فخرجت نفسه. فقال رسول الله ﷺ: «أخرج نفس صاحبكم ـ أو قال: أخيكم ـ الشوقُ إلى الجنة». مرسل غريب.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر، لحقارته وضعفه، فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾؟ ثم بين ذلك فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلاط. والمشج والمشيج: الشيء الخليط، بعضه في بعض. قال ابن عباس في قوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ يعني: ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعدُ من طور إلى طور، وحال إلى حال، ولون إلى لون. وهكذا قال عكرمة، ومجاهد، والحسن، والربيع بن أنس: الأمشاج: هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة. وقوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: نختبره، كقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي: جلعنا له سمعاً وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية. وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: بيناه له ووضحناه وبصرناه به، كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وكقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠]، أي: بينا له طريق الخير وطريق الشر. وهذا قول عكرمة، وعطية، وابن زيد، ومجاهد ـ في المشهور عنه ـ والجمهور. ورُوي عن مجاهد، وأبي صالح، والضحاك، والسدي أنهم قالوا في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾: يعني خروجه من الرحم. وهذا قول غريب، والصحيح المشهور الأول. وقوله: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾: منصوب على الحال من «الهاء» في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ تقديره: فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كل الناس يغدو، فبائع نفسه فموبقها أو مُعتِقها». وتقدم في سورة «الروم» عند قوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، من رواية جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يُعرب عنه لسانه، فإذا أعرب عنه لسانه، فإما شاكراً وإما كفوراً». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا عبد الله بن جعفر، عن عثمان بن محمد، عن المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما من خارج يخرج إلا ببابه رايتان: رايةٌ بيد ملك، وراية بيد شيطان، فإن خرج لما يُحبّ الله اتبعه الملك برايته، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته. وإن خرج لما يُسخط الله اتبعه الشيطان برايته، فلم يزل تحت راية الشيطان، حتى يرجع إلى بيته».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن ابن خُثَيم، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر بن عبد الله: أن النبي ﷺ قال لكعب بن عُجرة: «أعاذك الله من إمارة السفهاء». قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: «أمراء يكونون من بعدي، لا يهتدون بهداي، ولا يستنّون بسنتي، فمن صدّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا مني ولست منهم، ولا يردُون

على حوضي. ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يُعنهم على ظلمهم، فأولئك مني وأنا منهم، وسيردون على حوضي. يا كعب بن عُجرة، الصوم جنة، والصدقة تطفىء الخطيئة، والصلاة قربان ـ أو قال: برهان ـ. يا كعب بن عجرة، إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سُحْت، النار أولى به. يا كعب، الناس غاديان، فمبتاعٌ نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها». ورواه عن عفّان، عن وُهَيب، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، به.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾.

يخبر تعالى عما أرصده للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير، وهو اللهيب والحريق في نار جهنم، كما قال: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢﴾ [غافر: ٧١، ٧٢]. ولما ذكر ما أعده لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾، وقد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة في الجنة. قال الحسن: برد الكافور في طيب الزنجبيل، ولهذا قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾أي: الذي مُزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفاً بلا مزج ويَرْوَوْنَ بها؛ ولهذا ضمن يشرب «يروي» حتى عداه بالباء، ونصب ﴿عَيْنًا﴾على التمييز. قال بعضهم: هذا الشراب في طيبه كالكافور. وقال بعضهم: هو من عين كافور. وقال: بعضهم: يجوز أن يكون منصوباً بـ﴿يَشْرَبُ﴾. حكى هذه الأقوال الثلاثة ابنُ جرير. وقوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾أي: يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم. والتفجير هو الإنباع، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠﴾ [الإسراء: ٩٠]. وقال: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣]. قال مجاهد: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾: يقودونها حيث شاؤوا، وكذا قال عكرمة، وقتادة. وقال الثوري: يصرفونها حيث شاؤوا. وقوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾أي: يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر. قال الإمام مالك، عن طلحة بن عبد الملك الأيلي، عن القاسم بن مالك، عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺقال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»، رواه البخاري من حديث مالك. ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد، وهو اليوم الذي شره مستطير، أي: منتشر عام على الناس إلا من رحم الله. قال ابن عباس: فاشياً: وقال قتادة: استطار ـ والله ـ شرّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض. قال ابن جرير: ومنه قولهم: استطار الصدع في الزجاجة واستطال. ومنه قول الأعشى:

فبانَتْ وقَد أسأرت في الفُؤا د صَدْعاً، على نأيها، مُستطيراً

يعني: ممتداً فاشياً. وقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾: قيل: على حب الله تعالى. وجعلوا الضمير عائداً إلى الله ﷻلدلالة السياق عليه. والأظهر أن الضمير عائد على الطعام، أي: ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له، قاله مجاهد، ومقاتل، واختاره ابن جرير، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وكقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. وروى البيهقي، من طريق الأعمش، عن نافع قال: مرض ابن عمر فاشتهى عنباً ـ أول ما جاء العنب ـ فأرسلت صفية ـ يعني امرأته ـ فاشترت عنقوداً بدرهم، فاتبع الرسول السائل، فلما دخل به قال السائل: السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه. فأعطوه إياه. ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت عنقوداً فاتبع الرسول السائلُ، فلما دخل قال السائل: السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه. فأعطوه إياه. فأرسلت صفية إلى السائل فقالت: والله إن عُدت لا تصيبُ منه خيراً أبداً. ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به. وفي الصحيح: «أفضل الصدقة أن تصدّق وأنت صحيح، شحيح، تأمل الغنى، وتخشى الفقر»، أي: في حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾. أما المسكين واليتيم، فقد تقدم بيانهما وصفتهما. وأما الأسير: فقال سعيد بن جبير، والحسن، والضحاك: الأسير: من أهل القبلة. وقال ابن عباس: كان أسراؤهم يومئذ مشركين. ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺأمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء، وهكذا قال سعيد بن جبير، وعطاء، والحسن، وقتادة. وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء في غير ما حديث، حتى إنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول: «الصلاة وما ملكت أيمانكم». وقال عكرمة: هم العبيد ـ واختاره ابن جرير ـ لعموم الآية للمسلم والمشرك. وقال مجاهد: هو المحبوس، أي: يطعمون لهؤلاء

الطعام وهم يشتهونه ويحبونه، قائلين بلسان الحال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ أي: رجاء ثواب الله ورضاه، ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافئونا بها ولا أن تشكرونا عند الناس. قال مجاهد وسعيد بن جبير: أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به ليرغب في ذلك راغب. ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ أي: إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه، في اليوم العبوس القمطرير. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿عَبُوسًا﴾: ضيقاً، ﴿قَمْطَرِيرًا﴾: طويلاً. وقال عكرمة وغيره، عنه، في قوله: ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ أي: يعبس الكافر يومئذٍ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران. وقال مجاهد: ﴿عَبُوسًا﴾: العابس الشفتين، ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ قال: تقبيض الوجه بالبُسور. وقال سعيد بن جبير، وقتادة: تعبس فيه الوجوه من الهول، ﴿قَمْطَرِيرًا﴾: تقليص الجبين وما بين العينين، من الهول. وقال ابن زيد: العبوس: الشر. والقمطرير: الشديد. وأوضح العبارات وأجلاها وأحلاها، وأعلاها وأولاها قولُ ابن عباس، رضي الله عنه.

قال ابن جرير: والقمطرير هو: الشديد؛ يقال: هو يوم قمطرير ويوم قُماطر، ويوم عصيب وعصَبْصَب، وقد اقمطَر اليومُ يقمطرّ اقمطراراً، وذلك أشد الأيام وأطولها في البلاء والشدة، ومنه قول بعضهم:

بني عمِّنا، هل تذكُرونَ بَلاءَنَا؟ عليكم إذا ما كَانَ يومُ قُماطِرُ

قال الله تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾، وهذا من باب التجانس البليغ، ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ أي: آمنهم مما خافوا منه، ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً﴾ أي: في وجوههم، ﴿وَسُرُورًا﴾ أي: في قلوبهم. قاله الحسن البصري، وقتادة، وأبو العالية، والربيع بن أنس. وهذه كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]. وذلك أن القلب إذا سُرَّ استنار الوجه، قال كعب بن مالك في حديثه الطويل: وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ، استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر. وقالت عائشةُ: دخل عليَّ رسول الله ﷺ مسروراً تبرقُ أساريرُ وجهه. الحديث. وقوله: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: بسبب صبرهم أعطاهم ونوّلهم وبوّأهم ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي: منزلاً رحباً، وعيشاً رغداً، ولباساً حسناً. وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة هشام بن سليمان الدّاراني قال: قرىء على أبي سليمان الداراني سورة: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ﴾، فلما بلغ القارىء إلى قوله: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾، قال بما صبروا على ترك الشهوات في الدنيا، ثم أنشد:

كم قتيل بشهوةٍ وأسير أفّ من مُشتهى خلاف الجميل
شهواتُ الإنسان تورثه الذُّل وتُلْقِيه في البلاء الطَّويل

﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، وما أسبغ عليهم من الفضل العميم فقال: ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾. وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة «الصافات»، وذكر الخلاف في الاتكاء: هل هو الاضطجاع، أو التمرفق، أو التربع، أو التمكن في الجلوس؟ وأن الأرائك هي السُّرر تحت الحجال. وقوله: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي: ليس عندهم حرّ مزعج، ولا برد مؤلم، بل هي مزاج واحد دائم سَرْمَدِيّ: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]. ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ أي: قريبة إليهم أغصانها، ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي: متى تعاطاه دنا القطفُ إليه وتدلى من أعلى غصنه، كأنه سامع طائع، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحاقة: ٢٣]. قال مجاهد: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾: إن قام ارتفعت بقدره، وإن قعد تدلَّتْ له حتى ينالها، وإن اضطجع تدلَّت له حتى ينالها، فذلك قوله: ﴿تَذْلِيلًا﴾. وقال قتادة: لا يرد أيديهم عنها شوكٌ ولا بُعدٌ. وقال مجاهد: أرض الجنة من ورق، وترابها المسك، وأصول شجرها من ذهب وفضة، وأفنانها من اللؤلؤ الرطب والزبرجد والياقوت، والورقُ والتمر بين ذلك. فمن أكل منها قائماً لم يؤذه، ومن أكل منها قاعداً لم يؤذه، ومن أكل مضطجعاً لم يؤذه. وقوله: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: يطوف عليهم الخدم بأواني الطعام، وهي من فضة، وأكواب الشراب وهي الكيزان التي لا عرى لها ولا خراطيم. وقوله: ﴿قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ﴾، فالأول منصوب بخبر «كان» أي: كانت قوارير. والثاني منصوب إما على البدلية، أو تمييز؛ لأنه بينه بقوله: ﴿قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن البصري، وغير واحد: بياض الفضة في صفاء الزجاج، والقوارير لا تكون إلا من زجاج. فهذه الأكواب هي

من فضة، وهي مع هذا شفافة يرى ما في باطنها من ظاهرها، وهذا مما لا نظير له في الدنيا. قال ابن المبارك، عن إسماعيل، عن رجل، عن ابن عباس: ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي: على قدر ريّهم، لا تزيد عنه ولا تنقص، بل هي معدّة لذلك، مقدرة بحسب ريّ صاحبها. هذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي صالح، وقتادة، وابن أبزى، وعبد الله بن عُبيد بن عمير، وقتادة، والشعبي، وابن زيد. وقاله ابن جرير وغير واحد. وهذا أبلغ في الاعتناء والشرف والكرامة. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾: قدرت للكف. وهكذا قال الربيع بن أنس. وقال الضحاك: على قدر أكُفّ الخُدّام. وهذا لا ينافي القول الأول، فإنها مقدرة في القدر والريّ. وقوله: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾ أي: ويسقون ـ يعني الأبرار أيضاً ـ في هذه الأكواب ﴿كَأْسًا﴾ أي: خمراً، ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾، فتارة يُمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل، وهو حار، ليعتدل الأمر، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة. وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً، كما قاله قتادة وغير واحد. وقد تقدم في قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾، وقال ههنا: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ أي: الزنجبيل عين في الجنة تسمى سلسبيلاً. قال عكرمة: اسم عين في الجنة. وقال مجاهد: سميت بذلك لسلاسة سيلها وحدّة جريها. وقال قتادة: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾: عين سَلِسَة مُستقيد ماؤها. وحكى ابنُ جرير عن بعضهم أنها سميت بذلك لسلاستها في الحلق. واختار هو أنها تَعُمّ ذلك كلّه، وهو كما قال. وقوله تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ أي: يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدانٌ من ولدان الجنة ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: على حالة واحدة مخلدون عليها، لا يتغيرون عنها، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن. ومن فسرهم بأنهم مُخَرّصُون في آذانهم الأقرطة، فإنما عبر عن المعنى بذلك، لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير. وقوله: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي: إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة، وكثرتهم، وصباحة وجوههم، وحُسن ألوانهم وثيابهم وحليهم، حسبتهم لؤلؤاً منثوراً. ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن.

قال قتادة، عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو: ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف خادم، كل خادم على عمل ما عليه صاحبه. وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ أي: وإذا رأيت يا محمد، ﴿ثَمَّ﴾ أي: هناك، يعني في الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحَبْرَة والسرور، ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي: مملكةً لله هُناك عظيمةً وسلطاناً باهراً. وثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً إليها: إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها. وقد قدّمنا في الحديث المرويّ من طريق ثُوير بن أبي فاختة، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه». فإذا كان هذا عطاؤه تعالى لأدنى من يكون في الجنة، فما ظنك بما هو أعلى منزلة، وأحظى عنده تعالى. وقد روى الطبراني ها هنا حديثاً غريباً جداً فقال: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلي، حدثنا عفيف بن سالم، عن أيوب بن عتبة، عن عطاء، عن ابن عمر قال: جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله ﷺ: فقال له رسول الله: «سل واستفهم». فقال: يا رسول الله، فُضّلتُم علينا بالصور والألوان والنبوة، أفرأيت إن آمنتُ بما آمنت به وعملتُ بمثل ما عملت به، إني لكائن معك في الجنة؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده، إنه ليُرى بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام». ثم قال رسول الله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله، كان له بها عهدٌ عند الله، ومن قال: سبحان الله وبحمده، كتب له مائة ألف حسنة، وأربعة وعشرون ألف حسنة». فقال رجل: كيف نهلك بعد هذا يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليأتي يوم القيامة بالعمل لو وُضع على جبل لأثقله، فتقوم النعمة ـ أو: نعم الله ـ فتكاد تستنفد ذلك كله، إلا أن يتغمّده الله برحمته». ونزلت هذه السورة: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾. فقال الحبشي: وإن عيني لترى ما ترى عيناك في الجنة؟ قال: «نعم». فاستبكى حتى فاضت نفسه. قال ابن عمر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يُدليه في حُفرته بيده. وقوله: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ أي: لباس أهل الجنة فيها الحرير، ومنه سندس، وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر، كما هو المعهود في اللباس. ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون فكما قال: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي قال بعده: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي: طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرّديّة، كما روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: إذا انتهى أهلُ الجنة إلى باب الجنة

وجدوا هنالك عينين فكأنما ألهموا ذلك فشربوا من إحداهما فأذهب الله ما في بطونهم من أذى، ثم اغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرةُ النعيم. وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: يقال لهم ذلك تكريماً لهم وإحساناً إليهم كقوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤]، وكقوله: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ أي: جزاكم الله على القليل بالكثير.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾.

يقول تعالى ممتناً على رسوله ﷺ بما نزّله عليه من القرآن العظيم تنزيلاً ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: كما أكرمتُك بما أنزلتُ عليك، فاصبر على قضائه وقدره، واعلم أنه سيُدبرك بحسن تدبيره، ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي: لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدّك عما أنزل إليك، بل بلّغ ما أنزل إليك من ربك، وتوكل على الله؛ فإن الله يعصمك من الناس. فالآثم هو الفاجر في أفعاله، والكفور هو الكافر بقلبه. ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ أي: أول النهار وآخره. ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾، كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩]، وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل: ١ ـ ٤]. ثم قال تعالى منكراً على الكافر ومن أشبههم في حُبّ الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ يعني: يوم القيامة. ثم قال: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعني خَلْقهم. ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي: وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة، وبدلناهم فأعدناهم خلقاً جديداً. وهذا استدلال بالبداءة على الرجعة. وقال ابن زيد، وابن جرير: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي: وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم، كقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: ١٣٣]، وكقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠، وفاطر ١٦، ١٧]. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ يعني: هذه السورة ﴿تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً ومسلكاً، أي: من شاء اهتدى بالقرآن، كقوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ [النساء: ٣٩]. ثم قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: لا يقدر أحد أن يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان ولا يجر لنفسه نفعاً، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية فيُيَسّرها له، ويقيض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. ثم قال: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾ أي: يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ومن يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

آخر سورة «الإنسان» والله أعلم

❀ ❀ ❀

(٧٦) سورة الإنسان مدنية
وآياتها إحدى وثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ اتفقوا على أن (هل) ههنا وفى قوله تعالى (هل أتاك حديث الغاشية) بمعنى قد، كما تقول هل رأيت صنيع فلان، وقد علمت أنه قد رآه، وتقول هل وعظتك هل أعطيتك، ومقصودك أن تقرره بأنك قد أعطيته ووعظته، وقد تجيء بمعنى الجحد، تقول وهل يقدر أحد على مثل هذا. وأما أنها تجيء بمعنى الاستفهام نظاهر، والدليل على أنها ههنا ليست بمعنى الاستفهام وجهان (الأول) ما روى أن الصديق رضى الله عنه لما سمع هذه الآية قال: ياليتها كانت تمت فلا نبتلى، ولو كان ذلك استفهاما لما قال ليتها تمت، لأن الاستفهام، إنما يجاب بلا أو بنعم، فإذا كان المراد هو الخبر، فحينئذ يحسن ذلك الجواب (الثانى) أن الاستفهام على الله تعالى محال فلا بد من حمله على الخبر.

﴿المسألة الأولى﴾ اختلفوا فى الإنسان المذكور ههنا فقال جماعة من المفسرين يريد آدم عليه السلام، ومن ذهب إلى هذا قال: إن الله تعالى ذكر خلق آدم فى هذه الآية، ثم عقب بذكر ولده فى قوله (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه)، (والقول الثانى) أن المراد بالإنسان بنو آدم بدليل قوله (إنا خلقنا الإنسان من نطفة) فالانسان فى الموضعين واحد، وعلى هذا التقدير يكون نظم الآية أحسن.

﴿المسألة الثانية﴾ (حين) فيه قولان (الأول) أنه طائفة من الزمن الطويل الممتد وغير مقدر فى نفسه (والثانى) أنه مقدر بالأربعين، فمن قال المراد بالانسان هو آدم قال المعنى أنه مكث آدم عليه السلام أربعين سنة طيناً إلى أن نفخ فيه الروح، وروى عن ابن عباس أنه بقى طيناً أربعين سنة وأربعين من صلصال وأربعين من حمأ مسنون فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة، فهو فى هذه المدة ما كان شيئاً مذكوراً، وقال الحسن خلق الله تعالى كل الأشياء مايرى وما لايرى من من دواب البر والبحر فى الأيام الستة التى خلق فيها السموات والأرض وآخر ما خلق آدم عليه السلام وهو قوله (لم يكن شيئاً مذكوراً) فإن قيل إن الطين والصلصال والحمأ المسنون قبل نفخ

إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ

الروح فيه ماكان إنساناً ، والآية تقتضى أنه قد مضى على الإنسان حال كونه إنساناً حين من الدهر مع أنه فى ذلك الحين ما كان شيئاً مذكوراً ، قلنا إن الطين والصلصال إذا كان مصوراً بصورة الانسان ويكون محكوماً عليه بأنه سينفخ فيه الروح وسيصير إنساناً صح تسميته بأنه إنسان ، والذين يقولون الإنسان هو النفس الناطقة ، وإنها موجودة قبل وجود الأبدان ، فالإشكال عنهم زائل واعلم أن الغرض من هذا التنبيه على أن الإنسان محدث ، ومتى كان كذلك فلابد من محدث قادر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لم يكن شيئاً مذكوراً محله النصب على الحال من الإنسان كأنه قيل : هل أتى عليه حين من الدهر غير مذكور أو الرفع على الوصف لحين ، تقديره : هل أتى على الإنسان حين لم يكن فيه شيئاً .

قوله تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المشج : فى اللغة الخلط ، يقال مشج يمشج مشجاً إذا خلط ، والأمشاج الأخلاط ، قال ابن الأعرابى واحدها مشج ومشيج ، ويقال للشىء إذا خلط مشيج كقولك خليط وممشوج ، كقولك مخلوط . قال الهذلى :

كأن الريش والفوقين منه خلاف النصل شط به مشيج

يصف السهم بأنه قد بعد فى الرمية فالتطخ ريشه وفرقاه بدم يسير ، قال صاحب الكشاف الأمشاج لفظ مفرد ، وليس بجمع بدليل أنه صفة للمفرد وهو قوله (نطفة أمشاج) ويقال أيضاً نطفة مشيج ، ولا يصح أن يكون أمشاجاً جمعاً للمشج بل هما مثلان فى الإفراد ، ونظيره برمة أعشار (١) أى قطع مكسرة ، وثوب أخلاق وأرض سباسب ، واختلفوا فى معنى كون النطفة مختلطة فالأكثرون على أنه اختلاط نطفة الرجل بنطفة المرأة كقوله (يخرج من بين الصلب والترائب) قال ابن عباس هو اختلاط ماء الرجل وهو أبيض غليظ وماء المرأة وهو أصفر رقيق فيختلطان ويخلق الولد منهما ، فما كان من عصب وعظم وقوة فمن نطفة الرجل ، وما كان من لحم ودم فمن ماء المرأة ، قال مجاهد هى ألوان النطفة فنطفة الرجل بيضاء ونطفة المرأة صفراء ، وقال عبد الله أمشاجها عروقها ، وقال الحسن يعنى من نطفة مشجت بدم وهو دم الحيضة وذلك أن المرأة إذا تلقت ماء الرجل وحبلت أمسك حيضها فاختلطت النطفة بالدم ، وقال قتادة الأمشاج هو أنه يختلط الماء والدم أولا ثم يصير علقة ثم يصير مضغة ، وبالجملة فهو عبارة عن انتقال ذلك الجسم من صفة إلى صفة ، ومن حال إلى حال . وقال قوم إن الله تعالى جعل فى النطفة أخلاطاً من الطبائع التى تكون فى الإنسان من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، والتقدير من نطفة ذات أمشاج فحذف المضاف وتم الكلام ، قال بعض العلماء الأولى هو أن المراد اختلاط نطفة الرجل والمرأة

(١) فى المطبوعة التى تنقل عنها وبرمة أشعار ، والذى أعرفه وذكره النحاة واللغويون (برمة أعشار) .

نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ

لأن الله تعالى وصف النطفة بأنها أمشاج ، وهي إذا صارت علقة فلم يبق فيها وصف أنها نطفة ، ولكن هذا الدليل لايقدح فى أن المراد كونها أمشاجاً من الأرض والماء والهواء والحار .

قوله تعالى : ﴿ نبتليه ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ نبتليه معناه لنبتليه ، وهو كقول الرجل جئتك أقضى حقك ، أى لأقضى حقك ، وأتيتك أستمنحك ، أى لأستمنحك ، كذا قوله (نبتليه) أى لنبتليه ونظيره قوله (ولا تمنن تستكثر) أى لتستكثر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ نبتليه فى موضع الحال ، أى خلقناه مبتلين له ، يعنى مريدين ابتلاءه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى الآية قولان (أحدهما) أن فيه تقديماً وتأخيراً ، والمعنى (فجعلناه سميعاً بصيراً) لنبتليه (والقول الثانى) أنه لاحاجة إلى هذا التغيير ، والمعنى إنا خلقناه من هذه الأمشاج لاللبعث ، بل للابتلاء والامتحان .

ثم ذكر أنه أعطاه ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر ، فقال ﴿ فجعلناه سميعا بصيراً ﴾ والسمع والبصر كنايتان عن الفهم والتمييز ، كما قال تعالى حاكياً عن إبراهيم عليه السلام (لم تعبد مالا يسمع ولايبصر) وأيضاً قد يراد بالسميع المطيع ، كقوله سمعاً وطاعة ، وبالبصير العالم يقال فلان بصير فى هذا الأمر ، ومنهم من قال : بل المراد بالسمع والبصر الحاستان المعروفتان . والله تعالى خصهما بالذكر ، لأنهما أعظم الحواس وأشرفها .

قوله تعالى : ﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ أخبر الله تعالى أنه بعد أن ركبه وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة بين له سبيل الهدى والضلال ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الآية دالة على أن إعطاء الحواس كالمقدم على إعطاء العقل والأمر كذلك لأن الإنسان خلق فى مبدأ الفطرة خالياً عن معرفة الأشياء ، إلا أنه أعطاه آلات تعينه على تحصيل تلك المعارف ، وهى الحواس الظاهرة والباطنة ، فإذا أحس بالمحسوسات تنبه لمشاركات بينها ومباينات ، ينتزع منها عقائد صادقة أولية ، كعلمنا بأن النفى والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان وأن الكل أعظم من الجزء ، وهذه العلوم الأولية هى آلة العقل لأن بتركيباتها يمكن التوصل إلى استعلام المجهولات النظرية ، فثبت أن الحس مقدم فى الوجود على العقل ، ولذلك قيل من فقد حساً فقد علما ، ومن قال المراد من كونه سميعاً بصيراً هو العقل ، قال إنه لما بين فى الآية الأولى أنه أعطاه العقل بين فى هذه الآية ، أنه إنما أعطاه العقل ليبين له السبيل ويظهر له أن الذى يجب فعله ماهو . والذى لا يجوز ماهو .

﴿ المسألة الثانية ﴾ السبيل هو الذى يسلك من الطريق ، فيجوز أن يكون المراد بالسبيل

إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾

ههنا سبيل الخير والشر والنجاة والهلاك ، ويكون معنى هديناه ، أى عرفناه وبينا كيفية كل واحد منهما له ، كقوله تعالى (وهديناه النجدين) ويكون السبيل اسماً للجنس ، فلهذا أفرد لفظه كقوله تعالى (إن الإنسان لفى خسر) ويجوز أن يكون المراد بالسبيل ، هو سبيل الهدى لأنها هى الطريقة المعروفة المستحقه لهذا الاسم على الإطلاق ، فأما سبيل الضلالة فإنما هى سبيل بالإضافة ، ألا ترى إلى قوله تعالى (إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل) وإنما أضلوهم سبيل الهدى ، ومن ذهب إلى هذا جعل معنى قوله (هديناه) أى أرشدناه ، وإذا أرشد لسبيل الحق ، فقد نبه على تجنب ما سواها ، فكان اللفظ دليلا على الطريقين من هذا الوجه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المراد من هداية السبيل خلق الدلائل ، وخلق العقل الهادى وبعثة الأنبياء وإنزال الكتب ، كأنه تعالى قال : خلقتك للابتلاء ثم أعطيتك كل ماتحتاج إليه (ليهلك من هلك عن بينة) وليس معناه خلقنا الهداية ، ألا ترى أنه ذكر السبيل ، فقال (هديناه السبيل) أى أريناه ذلك

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الفراء هديناه السبيل ، وإلى السبيل وللسبيل ، كل ذلك جائز فى اللغة :

قوله تعالى : ﴿ إما شاكراً وإما كفورا ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الآية أقوال :

﴿ الأول ﴾ أن شاكر أو كفورا حالان من الهاء ، فى هديناه السبيل ، أى هديناه السبيل كونه شاكراً وكفوراً ، والمعنى أن كل ما يتعلق بهداية الله وإرشاده ، فقد تم حالتى الكفر والإيمان .

﴿ والقول الثانى ﴾ أنه انتصب قوله شاكراً وكفوراً بإضمار كان ، والتقدير سواء كان شاكراً أو كان كفوراً .

﴿ والقول الثالث ﴾ معناه إنا هديناه السبيل ، ليكون إما شاكراً وإما كفوراً أى ليتميز شكره من كفره وطاعته من معصيته كقوله (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) وقوله : (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا) وقوله (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) قال القفال ، ومجاز هذه الكلمة على هذا التأويل قول القائل ، قد نصحت لك إن شئت فاقبل ، وإن شئت فاترك ، أى فإن شئت فتحذف الفاء فكذا المعنى : إنا هديناه السبيل فإما شاكراً وإما كفوراً ، فتحذف الفاء وقد يحتمل أن يكون ذلك على جهة الوعيد أى إنا هديناه السبيل فإن شاء فليكفر وإن شاء فليشكر ، فإنا قد أعتدنا للكافرين كذا وللشاكرين كذا ، كقوله (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

﴿ القول الرابع ﴾ أن يكونا حالين من السبيل أى عرفناه السبيل ، أى إما سبيلا شاكراً ، وإما سبيلا كفوراً ، ووصف السبيل بالشكر والكفر مجاز .

واعلم أن هذه الأقوال كلها لائقة بمذهب المعتزلة .

﴿ والقول الخامس ﴾ وهو المطابق لمذهب أهل السنة ، واختيار الفراء أن تكون إما هذه الآية كإما فى قوله (إما يعذبهم وإما يتوب عليهم) والتقدير (إنا هديناه السبيل) ثم جعلناه تارة (شاكراً) أو تارة (كفوراً) ويتأكد هذا التأويل بما روى أنه قرأ أبو السمال بفتح الهمزة فى (أما) ، والمعنى أما شاكراً فبتوفيقنا وأما كفوراً فبخذلاننا ، قالت المعتزلة هذا التأويل باطل ، لأنه تعالى ذكر بعد هذه الآية تهديد الكفار فقال (إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيراً) ولو كان كفر الكافر من الله وبخلقه لما جاز منه أن يهدده عليه ، ولما بطل هذا التأويل ثبت أن الحق هو التأويل الأول وهو أنه تعالى هدى جميع المكلفين سواء آمن أو كفر ، وبطل بهذا قول المجبرة أنه تعالى لم يهد الكافر إلى الإيمان ، أجاب أصحابنا بأنه تعالى لما علم من الكافر أنه لا يؤمن ثم كلفه بأن يؤمن فقد كلفه بأن يجمع بين العلم بعدم الإيمان ووجود الإيمان وهذا تكليف بالجمع بين المتنافيين ، فإن لم يصر هذا عذراً فى سقوط التهديد والوعيد جاز أيضاً أن يخلق الكفر فيه ولا يصير ذلك عذراً فى سقوط الوعيد ، وإذا ثبت هذا ظهر أن هذا التأويل هو الحق ، وأن التأويل اللائق بقول المعتزلة ليس بحق ، وبطل به قول المعتزلة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى ذكر نعمه على الإنسان فابتدأ بذكر النعم الدنيوية ، ثم ذكر بعده النعم الدينية ، ثم ذكر هذه القسمة .

واعلم أنه لا يمكن تفسير الشاكر والكفور بمن يكون مشتغلا بفعل الشكر وفعل الكفران وإلا لم يتحقق الحصر ، بل المراد من الشاكر الذى يكون مقراً معترفاً بوجوب شكر خالقه عليه والمراد من الكفور الذى لا يقر بوجوب الشكر عليه ، إما لأنه ينكر الخالق أو لأنه وإن كان يثبته لكنه ينكر وجوب الشكر عليه ، وحينئذ يتحقق الحصر وهو أن المكلف ، إما أن يكون شاكراً وإما أن يكون كفوراً ، واعلم أن الخوارج احتجوا بهذه الآية على أنه لا واسطة بين المطيع والكافر ، قالوا لأن الشاكر هو المطيع ، والكفور هو الكافر ، والله تعالى نفى الواسطة وذلك يقتضى أن يكون كل ذنب كفراً ، وأن يكون كل مذنب كافراً ، واعلم أن البيان الذى لخصناه يدفع هذا الإشكال ، فإنه ليس المراد من الشاكر الذى يكون مشتغلا بفعل الشكر فإن ذلك باطل طرداً وعكساً ، أما الطرد فلأن اليهودى قد يكون شاكراً لربه مع أنه لا يكون مطيعاً لربه ، والفاسق قد يكون شاكراً لربه ، مع أنه لا يكون مطيعاً لربه ، وأما العكس فلأن المؤمن قد لا يكون مشتغلا بالشكر ولا بالكفران ، بل يكون ساكناً غافلا عنهما ، فثبت أنه لا يمكن تفسير الشاكر بذلك ، بل لابد وأن يفسر الشاكر بمن يقر بوجوب الشكر والكفور بمن لا يقر بذلك ، وحينئذ يثبت الحصر ، ويسقط سؤالهم بالكلية والله أعلم .

إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الفريقين أتبعهما بالوعيد والوعد ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الاعتداد هو إعداد الشيء حتى يكون عتيداً حاضراً متى احتيج إليه ، كقوله تعالى (هذا ما لدى عتيد) وأما السلاسل فتشد بها أرجلهم ، وأما الأغلال فتشد بها أيديهم إلى رقابهم ، وأما السعير فهو النار التي تسعر عليهم فتوقد فيكونون حطباً لها ، وهذا من أغلظ أنواع الترهيب والتخويف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الجحيم بسلاسلها وأغلالها مخلوقة ، لأن قوله تعالى (أعتدنا) إخبار عن الماضي ، قال القاضي إنه لما توعد بذلك على التحقيق صار كأنه موجود ، قلنا هذا الذي ذكرتم ترك للظاهر فلا يصار إليه إلا لضرورة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرىء سلاسلا بالتنوين ، وكذلك (قواريرا قواريراً) ومنهم من يصل بغير تنوين ، ويقف بالألف فلمن نون وصرف وجهان (أحدهما) أن الأخفش قال قد سمعنا من العرب صرف جميع مالا ينصرف ، قال وهـــذا لغة الشعراء لأنهم اضطروا إليه في الشعر فصرفوه ، فجرت ألسنتهم على ذلك (الثاني) ان هذه الجموع أشبهت الآحاد ، لأنهم قالوا صواحبات يوسف ، فلما جمعوه جمع الآحاد المنصرفة جعلوها فى حكمها فصرفوها ، وأما من ترك الصرف فإنه جعله كقوله (لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد) وأما إلحاق الألف فى الوقف فهو كالحاقها فى قوله (الظنونا ، والرسولا ، والسبيلا) فيشبه ذلك بالإطلاق فى القوافى .

ثم إنه تعالى ذكر ما أعد للشاكرين الموحدين فقال ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً ﴾ الأبرار جمع بر ، كالأرباب جمع رب ، والقول فى حقيقة البر قد تقدم فى تفسير قوله تعالى (ولكن البر من آمن بالله) ثم ذكر من أنواع نعيمهم صفة مشروبهم ، فقال (يشربون من كأس) يعنى من إناء فيه الشراب ، ولهذا قال ابن عباس ومقاتل : يريد الخمر ، وفى الآية سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ أن مزج الكافور بالمشروب لا يكون لذيذاً ، فما السبب فى ذكره ههنا ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) أن الكافور اسم عين فى الجنة ماؤها فى بياض الكافور ورائحته وبرده ، ولكن لا يكون فيه طعمه ولا مضرته ، فالمعنى أن ذلك الشراب يكون ممزوجاً بماء هذه العين (وثانيها) أن رائحة الكافور عرض فلا يكون إلا فى جسم ، فإذا خلق الله تلك الرائحة فى جرم ذلك الشراب سمى ذلك الجسم كافوراً ، وإن كان طعمه طيباً (وثالثها) أى بأس فى أن

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ

يخلق الله تعالى الكافور فى الجنة لكن من طعم طيب لذيذ ، ويسلب عنه ما فيه من المضرة ؟ ثم إنه تعالى يمزجه بذلك المشروب ، كما أنه تعالى سلب عن جميع المأكولات والمشروبات ما معها فى الدنيا من المضار .

﴿السؤال الثانى﴾ مافائدة كان فى قوله (كان مزاجها كافوراً) ؟ (الجواب) منهم من قال إنها زائدة ، والتقدير من كأس مزاجها كافورا ، وقيل بل المعنى كان مزاجها فى علم الله ، وحكمه كافورا

قوله تعالى : ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إن قلنا الكافور اسم النهر كان عيناً بدلا منه ، وإن شئت نصبت على المدح ، والتقدير أعنى عيناً ، أما إن قلنا إن الكافور اسم لهذا الشىء المسمى بالكافور كان عيناً بدلا من محل من كأس على تقدير حذف مضاف ، كأنه قيل يشربون خمراً خمر عين ، ثم حذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فى الآية الأولى (يشربون من كأس) وقال ههنا يشرب بها ، فذكر هناك من وههنا الباء ، والفرق أن الكأس مبدأ شربهم وأول غايته . وأما العين فبها يمزجون شرابهم فكأن المعنى : يشرب عباد الله بها الخمر ، كما تقول شربت الماء بالعسل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (يشرب بها عباد الله) عام فيفيد أن كل عباد الله يشربون منها ، والكفار بالاتفاق لايشربون منها ، فدل على أن لفظ عباد الله مختص بأهل الإيمان ، إذا ثبت هذا فقوله (ولا يرضى لعباده الكفر) لايتناول الكفار بل يكون مختصاً بالمؤمنين ، فيصير تقدير الآية ولا يرضى لعباده المؤمنين الكفر ، فلا تدل الآية على أنه تعالى لايريد كفر الكافر .

قوله تعالى : ﴿ يفجرونها تفجيراً ﴾ معناه يفجرونها حيث شاؤا من منازلهم تفجيراً سهلا لا يمتنع عليهم واعلم أنه سبحانه لما وصف ثواب الأبرار فى الآخرة شرح أعمالهم التى بها استوجبوا ذلك الثواب

فالأول قوله تعالى ﴿ يوفون بالنذر ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الإيفاء بالشىء هو الإتيان به وافياً ، أما النذر فقال أبو مسلم النذر كالوعد ، إلا أنه إذا كان من العباد فهو نذر ، وإن كان من الله تعالى فهو وعد ، واختص هذا اللفظ فى عرف الشرع بأن يقول لله على كذا وكذا من الصدقة ، أو يعلق ذلك بأمر يلتمسه من الله تعالى مثل أن يقول إن شفى الله مريضى ، أورد غائبى فعلى كذا كذا ، واختلفوا فيما إذا علق ذلك بما ليس من وجوه البر ، كما إذا قال إن دخل فلان الدار فعلى كذا ، فمن الناس من جعله كاليمين ، ومنهم من جعله من باب النذر ، إذا عرفت هذا ، فنقول المفسرين فى تفسير الآية أقوال (أولها) أن المراد من النذر هو النذر فقط ، ثم قال الأصم هذا مبالغة فى وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات . لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه كان بما أوجبه الله عليه أوفى ، وهذا

وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾

التفسير فى غاية الحسن (وثانيها) المراد بالنذر ههنا كل ما وجب عليه سواء وجب بإيجاب الله تعالى ابتداء أو بأن أوجبه المكلف على نفسه فيدخل فيه الإيمان وجميع الطاعات ، وذلك لأن النذر معناه الإيجاب (وثالثها) قال الكلبى المراد من النذر العهد والعقد ، ونظيره قوله تعالى (أوفوا بعهدى أوف بعهدكم) فسمى فرائضه عهداً ، وقال (أوفوا بالعقود) سماها عقوداً لأنهم عقدوها على أنفسهم باعتقادهم الإيمان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية دالة على وجوب الوفاء بالنذر ، لأنه تعالى عقبه بيخافون يوماً وهذا يقتضى أنهم إنما وفوا بالنذر خوفاً من شر ذلك اليوم ، والخوف من شر ذلك اليوم لا يتحقق إلا إذا كان الوفاء به واجباً ، وتأكد هذا بقوله تعالى (ولا تنقضوا الإيمان) بعد توكيدها وبقوله (ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم) فيحتمل ليوفوا أعمال نسكهم التى ألزموها أنفسهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الفراء وجماعة من أرباب المعانى : كان فى قوله (كان مزاجها كافوراً) زائدة . وأما ههنا فكان محذوفة ، والتقدير كانوا يوفون بالنذر . ولقائل أن يقول : إنا بينا أن كان فى قوله (كان مزاجها) ليست بزائدة . وأما فى هذه الآية فلا حاجة إلى إضمارها ، وذلك لأنه تعالى ذكر فى الدنيا أن الأبرار يشربون أى سيشربون ، فإن لفظ المضارع مشترك بين الحال والاستقبال ، ثم قال السبب فى ذلك الثواب الذى سيجدونه أنهم الآن (يوفون بالنذر) .

(النوع الثانى) من أعمال الأبرار التى حكاها الله تعالى عنهم قوله تعالى ﴿ ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾ .

واعلم أن تمام الطاعة لا يحصل إلا إذا كانت النية مقرونة بالعمل ، فلما حكى عنهم العمل وهو قوله (يوفون) حكى عنهم النية وهو قوله (ويخافون يوماً) وتحقيقه قوله عليه السلام « إنما الأعمال بالنيات » وبمجموع هذين الأمرين سماهم الله تعالى بالأبرار ، وفى الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ أحوال القيامة وأهوالها كلها فعل الله ، وكل ما كان فعلا لله فهو يكون حكمة وصواباً ، وما كان كذلك لا يكون شراً . فكيف وصفها الله تعالى بأنها شر ؟ (الجواب) أنها إنما سميت شراً لكونها مضرة بمن تنزل عليه وصعبة عليه ، كما تسمى الأمراض وسائر الأمور المكروهة شروراً .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما معنى المستطير ؟ (الجواب) فيه وجهان (أحدهما) الذى يكون فاشياً منتشراً بالغاً أقصى المبالغ ، وهو من قولهم : استطار الحريق ، واستطار الفجر وهو من طار بمنزلة استنفر من نفر ، فإن قيل كيف يمكن أن يقال شر ذلك اليوم مستطير منتشر ، مع أنه تعالى قال فى صفة أوليائه (لا يحزنهم الفزع الأكبر) ؟ ، قلنا الجواب من وجهين (الأول) أن هول القيامة شديد ، ألا ترى أن السموات تنشق وتنفطر وتصير كالمهل ، وتتناثر الكواكب ، وتتكور

وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾

الشمس والقمر ، وتفرغ الملائكة ، وتبدل الأرض غير الأرض ، وتنسف الجبال ، وتسجر البحار وهذا الهول عام يصل إلى كل المكلفين على ما قال تعالى (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وقال (يوما يجعل الولدان شيباً) إلا أنه تعالى بفضله يؤمن أولياءه من ذلك الفزع (والجواب الثانى) أن يكون المراد أن شر ذلك اليوم يكون مستطيراً فى العصاة والفجار . وأما المؤمنون فهم آمنون ، كما قال (لا يحزنهم الفزع الأكبر ، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) إلا أن أهل العقاب فى غاية الكثرة بالنسبة إلى أهل الثواب ، فأجرى الغالب مجرى الكل على سبيل المجاز .

﴿ القول الثانى ﴾ فى تفسير المستطير أنه الذى يكون سريع الوصول إلى أهله ، وكأن هذا القائل ذهب إلى أن الطيران إسراع .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم قال كان شره مستطيراً ، ولم يقل وسيكون شره مستطيراً ؟ (الجواب) اللفظ وإن كان للماضى ، إلا أنه بمعنى المستقبل ، وهو كقوله (وكان عهد الله مسؤلا) ويحتمل أن يكون المراد إنه كان شره مستطيراً فى علم الله وفى حكمته ، كأنه تعالى يعتذر ويقول إيصال هذا الضرر إنما كان لأن الحكمة تقتضيه ، وذلك لأن نظام العالم لا يحصل إلا بالوعد والوعيد ، وهما يوجبان الوفاء به ، لاستحالة الكذب فى كلامى ، فكأنه تعالى يقول كان ذلك فى الحكمة لازماً ، فلهذا السبب فعلته ،

﴿ النوع الثالث ﴾ من أعمال الأبرار قوله تعالى : ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ﴾

اعلم أن مجامع الطاعات محصورة فى أمرين التعظيم لأمر الله تعالى ، وإليه الإشارة بقوله (يوفون بالنذر) والشفقة على خلق الله ، وإليه الإشارة بقوله (ويطعمون الطعام) وههنا مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ لم يذكر أحد من أكابر المعتزلة ، كأبى بكر الأصم وأبى على الجبائى وأبى القاسم الكعبى ، وأبى مسلم الأصفهانى ، والقاضى عبد الجبار بن أحمد فى تفسيرهم أن هذه الآيات نزلت فى حق على بن أبى طالب عليه السلام ، والواحدى من أصحابنا ذكر فى كتاب

البسيط أنها نزلت فى حق على عليه السلام ، وصاحب الكشاف من المعتزلة ذكر هذه القصة ، فروى عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن الحسن والحسين عليهما السلام مرضاً فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أناس معه ، فقالوا يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك ، فنذر على وفاطمة وفضة جارية لهما ، إن شفاهما الله تعالى أن يصوموا ثلاثة أيام فشفيا وما معهم شىء فاستقرض على من شمعون الخيبرى اليهودى ثلاثة أصوع من شعير فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم ووضعوها بين أيديهم ليفطروا ، فوقف عليهم سائل فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد ، مسكين من مساكين المسلمين أطعمونى أطعمكم الله من موائد الجنة فآثروه وباتوا ولم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صائمين ، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه وجاءهم أسير فى الثالثة ، ففعلوا مثل ذلك فلما أصبحوا أخذ على عليه السلام بيد الحسن والحسين ودخلوا على الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال ما أشد مايسوءنى ما أرى بكم وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة فى محرابها قد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها فساءه ذلك ، فنزل جبريل عليه السلام وقال خذها يامحمد هناك الله فى أهل بيتك فأقرأها السورة » والأولون يقولون إنه تعالى ذكر فى أول السورة أنه إنما خلق الخلق للابتلاء والامتحان ، ثم بين أنه هدى الكل وأزاح عللهم ثم بين أنهم انقسموا إلى شاكر وإلى كافر ثم ذكر وعيد الكافر ثم أتبعه بذكر وعد الشاكر فقال (إن الأبرار يشربون) وهذه صيغة جمع فتتناول جميع الشاكرين والأبرار ، ومثل هذا لايمكن تخصيصه بالشخص الواحد ، لأن نظم السورة من أولها إلى هذا الموضع يقتضى أن يكون هذا بياناً لحال كل من كان من الأبرار والمطيعين ، فلو جعلناه مختصاً بشخص واحد لفسد نظم السورة (والثانى) أن الموصوفين بهذه الصفات مذكورون بصيغة الجمع كقوله (إن الأبرار يشربون ، ويوفون بالنذر ، ويخافون ويطعمون) وهكذا إلى آخر الآيات فتخصيصه بجمع معينين خلاف الظاهر ، ولا ينكر دخول على بن أبى طالب عليه السلام فيه ، ولكنه أيضاً داخل فى جميع الآيات الدالة على شرح أحوال المطيعين ، فكما أنه داخل فيها فكذا غيره من أتقياء الصحابة والتابعين داخل فيها ، فحينئذ لايبقى للتخصيص معنى البتة ، اللهم إلا أن يقال السورة نزلت عند صدور طاعة مخصوصة عنه ، ولكنه قد ثبت فى أصول الفقه أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الذين يقولون هذه الآية مختصة بعلى بن أبى طالب عليه السلام ، قالوا المراد من قوله (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً) هو ما رويناه أنه عليه السلام أطعم المسكين واليتيم والأسير ، وأما الذين يقولون الآية عامة فى حق جميع الأبرار [فانهم] قالوا إطعام الطعام كناية عن الإحسان إلى المحتاجين والمواساة معهم بأى وجه كان ، وإن لم يكن ذلك بالطعام بعينه ، ووجه ذلك أن أشرف أنواع الإحسان هو الإحسان بالطعام وذلك لأن قوام الأبدان

بالطعام ولا حياة إلا به ، وقد يتوهم إمكان الحياة مع فقد ما سواه ، فلما كان الإحسان لا جرم عبر به عن جميع وجوه المنافع والذى يقوى ذلك أنه يعبر بالأكل عن جميع وجوه المنافع ، فيقال أكل فلان ماله إذا أتلفه فى سائر وجوه الإتلاف ، وقال تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً) وقال (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) إذا ثبت هذا فنقول : إن الله تعالى وصف هؤلاء الأبرار بأنهم يواسون بأموالهم أهل الضعف والحاجة ، وأما قوله تعالى (على حبه) ففيه وجهان (أحدهما) أن يكون الضمير للطعام أى مع اشتهائه والحاجة إليه ونظيره (وآتى المال على حبه ، لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) فقد وصفهم الله تعالى بأنهم يؤثرون غيرهم على أنفسهم على ما قال (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) (والثانى) قال الفضيل بن عياض على حب الله أى لحبهم لله : واللام قد تقام مقام على ، وكذلك تقام على مقام اللام ، ثم إنه تعالى ذكر أصناف من تجب مواساتهم ، وهم ثلاثة (أحدهم) المسكين وهو العاجز عن الاكتساب بنفسه (والثانى) اليتيم وهو الذى مات كاسبه فيبقى عاجزاً عن الكسب لصغره مع أنه مات كسبه (والثالث) الأسير وهو المأخوذ من قومه المملوك [ه] رقبته الذى لا يملك لنفسه نصراً ولا حيلة ، وهؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى ههنا هم الذين ذكرهم فى قوله (فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة) وقد ذكرنا اختلاف الناس فى المسكين قبل هذا ، أما الأسير فقد اختلفوا فيه على أقوال (أحدها) قال ابن عباس والحسن وقتادة إنه الأسير من المشركين ، روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يبعث الأسارى من المشركين ليحفظوا وليقام بحقهم ، وذلك لأنه يجب إطعامهم إلى أن يرى الإمام رأيه فيهم من قتل أو من أو فداء أو استرقاق ، ولا يمتنع أيضاً أن يكون المراد هو الأسير كافراً كان أو مسلماً ، لأنه إذا كان مع الكفر يجب إطعامه فمع الاسلام أولى ، فإن قيل لما وجب قتله فكيف يجب إطعامه ؟ قلنا القتل فى حال لا يمنع من الإطعام فى حال أخرى ، ولا يجب إذا عوقب بوجه أن يعاقب بوجه آخر ، ولذلك لا يحسن فيمن يلزمه القصاص أن يفعل به ما هو دون القتل ثم هذا الاطعام على من يجب ؟ فنقول الإمام يطعمه فإن لم يفعله الإمام وجب على المسلمين (وثانيها) قال السدى الأسير هو المملوك (وثالثها) الأسير هو الغريم قال عليه السلام « غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك » (ورابعها) الأسير هو المسجون من أهل القبلة وهو قول مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير ، وروى ذلك مرفوعاً من طريق الخدرى أنه عليه السلام قال (مسكيناً) فقيراً (ويتيما) لا أب له (وأسيراً) قال المملوك المسجون (وخامسها) الأسير هو الزوجة لأنهن أسراء عند الأزواج ، قال عليه الصلاة والسلام « اتقوا الله فى النساء فانهن عندكم أعوان » قال القفال واللفظ يحتمل كل ذلك لأن الأصل الأسر هو الشد بالقد ، وكان الأسير يفعل به ذلك حبساً له ، ثم سمى بالأسير من شد ومن لم يشد فعاد المعنى إلى الحبس .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن الأبرار يحسنون إلى هؤلاء المحتاجين بين أن لهم فيه غرضين (أحدهما) تحصيل رضا الله . وهو المراد من قوله (إنما نطعمكم لوجه الله) (والثاني) الاحتراز من خوف يوم القيامة وهو المراد من قوله (إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (إنما نطعمكم لوجه الله) إلى قوله (قمطريراً) يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون هؤلاء الأبرار قد قالوا هذه الأشياء باللسان ، إما لأجل أن يكون ذلك القول منعاً لأولئك المحتاجين عن المجازاة بمثله أو بالشكر ، لأن إحسانهم مفعول لأجل الله تعالى فلا معنى لمكافأة الخلق ، وإما أن يكون لأجل أن يصير ذلك القول تفقيهاً وتنبيهاً على ما ينبغي أن يكون عليه من أخلص لله حتى يقتدي غيرهم بهم في تلك الطريقة (وثانيها) أن يكونوا أرادوا أن يكون ذلك (وثالثها) أن يكون ذلك بياناً وكشفاً عن اعتقادهم وصحة نيتهم وإن لم يقولوا شيئاً . وعن مجاهد أنهم ما تكلموا به ولكن علمه الله تعالى منهم فأثنى عليهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن الإحسان من الغير تارة يكون لأجل الله تعالى ، وتارة يكون لغير الله تعالى إما طلباً لمكافأة أو طلباً لحمد وثناء وتارة يكون لهما وهذا هو الشرك والأول هو المقبول عند الله تعالى ، وأما القسمان الباقيان فمردودان قال تعالى (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس) وقال (وما آتيتم من رباً ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) ولا شك أن التماس الشكر من جنس المن والأذى . إذا عرفت هذا فنقول : القوم لما قالوا (إنما نطعمكم لوجه الله) بقي فيه احتمال أنه أطعمه لوجه الله ولسائر الأغراض على سبيل التشريك ، فلا جرم نفى هذا الاحتمال بقوله (لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الشكور والكفور مصدران كالشكر والكفر ، وهو على وزن الدخول والخروج ، هذا قول جماعة أهل اللغة ، وقال الأخفش إن شئت جعلت الشكور جماعة الشكر وجعلت الكفور جماعة الكفر لقوله (فأبى الظالمون إلا كفوراً) مثل برد وبرود وإن شئت مصدراً واحداً في معنى جمع مثل قعد قعوداً وخرج خروجاً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (إنا نخاف من ربنا) يحتمل وجهين (أحدهما) أن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم لا لإرادة مكافأتكم (والثاني) أنا لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله على طلب المكافأة بالصدقة ، فإن قيل إنه تعالى حكى عنهم الإيفاء بالنذر وعلل ذلك بخوف القيامة فقط ، ولما حكى عنهم الإطعام علل ذلك بأمرين بطلب رضاء الله وبالخوف عن القيامة فما السبب فيه ؟ قلنا الإيفاء بالنذر دخل في حقيقة طلب رضاء الله تعالى ، وذلك لأن النذر هو الذي أوجبه الإنسان على نفسه لأجل الله فلما كان كذلك لا جرم ضم إليه خوف القيامة فقط ، أما الإطعام ، فانه لا يدخل في حقيقة طلب رضا الله ، فلا جرم ضم إليه طلب رضا الله وطلب الحذر من خوف القيامة .

فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ

﴿ المسألة الخامسة ﴾ وصف اليوم بالعبوس مجازاً على طريقتين (أحدهما) أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء كقولهم نهارك صائم ، روى أن الكافر يحبس حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران (والثانى) أن يشبه فى شدته وضراوته بالأسد العبوس أو بالشجاع الباسل .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال الزجاج جاء فى التفسير أن قمطريرا معناه تعبيس الوجه ، فيجتمع ما بين العينين ، قال : وهذا سائغ فى اللغة يقال اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها ورست بأنفها يعنى أن معنى اقمطر فى اللغة جمع ، وقال الكلبى قمطريراً يعنى شديداً وهو قول الفراء وأبى عبيدة والمبرد وابن قتيبة ، قالوا يوم قمطرير ، وقماطر إذا كان صعباً شديداً أشد ما يكون من الأيام وأطوله فى البلاء ، قال الواحدى هذا معنى والتفسير هو الأول .

قوله تعالى : ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم أتوا بالطاعات لغرضين طلب رضا الله والخوف من القيامة بين فى هذه الآية أنه أعطاهم هذين الغرضين ، أما الحفظ من هول القيامة ، فهو المراد بقوله (فوقاهم الله شر ذلك اليوم) وسمى شدائدها شراً توسعاً على ماعلمت ، واعلم أن هذه الآية أحد ما يدل على أن شدائد الآخرة لا تصل إلا إلى أهل العذاب ، وأما طلب رضاء الله تعالى فأعطاهم بسببه نضرة فى الوجه وسروراً فى القلب ، وقد مر تفسير (ولقاهم) فى قوله (ويلقون فيها تحية) وتفسير النضرة فى قوله (وجوه يومئذ ناضرة) والتنكير فى (سروراً) للتعظيم والتفخيم .

قوله تعالى : ﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ﴾ والمعنى وجزاهم بصبرهم على الإيثار ومايؤدى إليه من الجوع والعرى ، بستاناً فيه مأكل هنىء وحريراً فيه ملبس بهى ، ونظيره قوله تعالى (ولباسهم فيها حرير) أقول وهذا يدل على أن المراد من قوله (إنما نطعمكم) ليس هو الإطعام فقط بل جميع أنواع المواساة من الطعام والكسوة ، ولما ذكر تعالى طعامهم ولباسهم ، وصف مساكنهم ، ثم إن المعتبر فى المساكن أمور :

(أحدها) الموضع الذى يجلس فيه فوصفه بقوله : ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ وهى السرر فى الحجال ، ولا تكون أريكة إلا إذا اجتمعت ، وفى نصب متكئين وجهان (الأول) قال الأخفش إنه نصب على الحال ، والمعنى وجزاهم جنة فى حال اتكائهم كما تقول جزاهم ذلك قياماً ، (والثانى) قال الأخفش وقد يكون على المدح .

لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾

﴿ والثانى ﴾ هو المسكن فوصفه بقوله ﴿ لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ﴾ وفيه وجهان (أحدهما) أن هواءها معتدل فى الحر والبرد (والثانى) أن الزمهرير هو القمر فى لغة طىء هكذا رواه ثعلب وأنشد :

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها والزمهرير ما زهر

والمعنى أن الجنة ضياء فلا يحتاج فيها إلى شمس وقمر .

﴿ والثالث ﴾ كونه بستاناً نزهاً ، فوصفه الله تعالى بقوله ﴿ ودانية عليهم ظلالها ﴾ وفى الآية سؤالان (الأول) ما السبب فى نصب (ودانية) ؟ (الجواب) ذكر الأخفش والكسائى والفراء والزجاج فيه وجهين (أحدهما) الحال بالعطف على قوله (متكئين) كما تقول فى الدار : عبد الله متكئاً ومرسلة عليه الحجال ، لأنه حيث قال عليهم رجع إلى ذكرهم (والثانى) الحال بالعطف على محل (يرون فيها شمساً ولا زمهريراً) والتقدير غير رائين فيها شمساً ولا زمهريراً (ودانية عليهم ظلالها) ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين يجتمعان لهم ، كأنه قيل : وجزاهم جنة جامعين فيها بين البعد عن الحر والبرد ، ودنو الظلال عليهم (والثالث) أن يكون دانية نعتاً للجنة ، والمعنى : وجزاهم جنة دانية ، وعلى هذا الجواب تكون دانية صفة لموصوف محذوف ، كأنه قيل وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ، وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها ، وذلك لأنهم وعدوا جنتين ، وذلك لأنهم خافوا بدليل قوله (إنا نخاف من ربنا) وكل من خاف فله جنتان ، بدليل قوله (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وقرىء (ودانية) بالرفع على أن (ظلالها) مبتدأ (ودانية) خبر ، والجملة فى موضع الحال ، والمعنى (لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً) والحال أن ظلالها دانية عليهم .

﴿ السؤال الثانى ﴾ الظل إنما يوجد حيث توجد الشمس ، فإن كان لا شمس فى الجنة فكيف يحصل الظل هناك ؟ (والجواب) أن المراد أن أشجار الجنة تكون بحيث لو كان هناك شمس لكانت تلك الأشجار مظللة منها .

قوله تعالى : ﴿ وذللت قطوفها تذليلا ﴾ ذكروا فى ذللت وجهين (الأول) قال ابن قتيبة : ذللت أدنيت منهم من قولهم : حائط ذليل إذا كان قصير السمك (والثانى) ذللت أى جعلت منقادة ولا تمتنع على قطافها كيف شاءوا . قال البراء بن عازب : ذللت لهم فهم يتناولون منها كيف شاءوا ، فمن أكل قائماً لم يؤذه ومن أكل جالسا لم يؤذه ومن أكل مضطجعاً لم يؤذه .

واعلم أنه تعالى لما وصف طعامهم ولباسهم ومسكنهم وصف بعد ذلك شرابهم وقدم عليه

وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾

وصف تلك الأوانى التى فيها يشربون فقال ﴿ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا قوارير من فضة قدروها تقديراً﴾ فى الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ قال تعالى (ويطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب) والصحاف هى القصاع ، والغالب فيها الأكل فإذا كان ما يأكلون فيه ذهباً فما يشربون فيه أولى أن يكون ذهباً لأن العادة أن يتنوق فى إناء الشرب مالا يتنوق فى إناء الأكل وإذا دلت هذه الآية على أن إناء شربهم يكون من الذهب فكيف ذكر ههنا أنه من الفضة (والجواب) أنه لا منافاة بين الأمرين فتارة يسقون بهذا وتارة بذاك .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما الفرق بين الآنية والأكواب ؟ (الجواب) قال أهل اللغة الأكواب الكيزان التى لا عرى لها ، فيحتمل أن يكون على معنى أن الإناء يقع فيه الشرب كالقدح ، والكوب ماصب منه فى الإناء كالإبريق .

﴿ السؤال الثالث ﴾ ما معنى كانت ؟ (الجواب) هو من يكون فى قوله (كن فيكون) أى تكونت قوارير بتكوين الله تفخيما لتلك الخلقة العجيبة الشأن الجامعة بين صفتى الجوهرين المتباينين .

﴿ السؤال الرابع ﴾ كيف تكون هذه الأكواب من فضة ومن قوارير ؟ (الجواب) عنه من وجوه (أحدها) أن أصل القوارير فى الدنيا الرمل وأصل قوارير الجنة هو فضة الجنة فكما أن الله تعالى قادر على أن يقلب الرمل الكثيف زجاجة صافية ، فكذلك هو قادر على أن يقلب فضة الجنة قارورة لطيفة ، فالغرض من ذكر هذه الآية ، التنبيه على أن نسبة قارورة الجنة إلى قارورة الدنيا كنسبة فضة الجنة إلى رمل الدنيا ، فكما أنه لا نسبة بين هذين الأصلين ، فكذا بين القارورتين فى الصفاء واللطافة (وثانيها) قال ابن عباس ليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة إلا الأسماء وإذا كان كذلك فكمال الفضة فى بقائها ونقائها وشرفها إلا أنه كثيف الجوهر ، وكمال القارورة فى شفافيتها وصفائها إلا أنه سريع الانكسار ، فآنية الجنة آنية يحصل فيها من الفضة بقاؤها ونقاؤها ، وشرف جوهرها ، ومن القارورة ، صفاؤها وشفافيتها (وثالثها) أنها تكون فضة ولكن لها صفاء القارورة ، ولا يستبعد من قدرة الله تعالى الجمع بين هذين الوصفين (ورابعها) أن المراد (بالقوارير) فى الآية ليس هو الزجاج ، فإن العرب تسمى ما استدار من الأوانى التى تجعل فيها الأشربة ورق وصفاقارورة ، فمعنى الآية (وأكواب من فضة) مستديرة صافية رقيقة .

وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾

﴿ السؤال الخامس ﴾ كيف القراءة فى (قواريرا ، قوارير) ؟ (الجواب) قرئا غير منونين وبتنوين الأول وبتنوينهما ، وهذا التنوين بدل عن ألف الإطلاق لأنه فاصلة ، وفى الثانى لاتباعه الأول لأن الثانى بدل من الأول فيتبع البدل المبدل ، وقرىء (قوارير من فضة) بالرفع على هى قوارير ، وقدروها صفة لقوارير من فضة .

أما قوله تعالى (قدروها تقديراً) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال المفسرون معناه (قدروها تقديراً) على قدر ريهم لايزيد ولا ينقص من الرى ليكون الذ لشربهم ، وقال الربيع بن أنس : إن تلك الأوانى تكون بمقدار ملء الكف لم تعظم فيثقل حملها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن منتهى مراد الرجل فى الآنية التى يشرب منها الصفاء والنقاء والشكل . أما الصفاء فقد ذكره الله تعالى بقوله (كانت قوارير) وأما النقاء فقد ذكره بقوله من فضة ، وأما الشكل فقد ذكره بقوله (قدروها تقديراً) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المقدر لهذا التقدير من هو؟ فيه قولان (الأول) أنهم هم الطائفون الذين دل عليهم قوله تعالى (ويطاف عليهم) وذلك أنهم قدروا شرابها على قدر رى الشارب (والثانى) أنهم هم الشاربون وذلك لأنهم إذا اشتهوا مقداراً من المشروب جاءهم على ذلك القدر

واعلم أنه تعالى لما وصف أوانى مشروبهم ذكر بعد ذلك وصف مشروبهم ، فقال ﴿ ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا ﴾ العرب كانوا يحبون جعل الزنجبيل فى المشروب ، لأنه يحدث فيه ضرباً من اللذع ، فلما كان كذلك وصف الله شراب أهل الجنة بذلك ، ولابد وأن تكون فى الطيب على أقصى الوجوه . قال ابن عباس : وكل ماذكره الله تعالى فى القرآن مما فى الجنة ، فليس منه فى الدنيا إلا الاسم ، وتمام القول ههنا مثل ما ذكرناه فى قوله (كان مزاجها كافوراً) .

قوله تعالى : ﴿ عيناً فيها تسمى سلسبيلا ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ابن الأعرابى لم أسمع السلسبيل إلا فى القرآن ، فعلى هذا لا يعرف له اشتقاق ، وقال الأكثرون يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل أى عذب سهل المساغ ، وقد زيدت الباء فى التركيب حتى صارت الكلمة سداسية ، ودلت على غاية السلاسة ، قال الزجاج السلسبيل فى اللغة صفة لما كان فى غاية السلاسة ، والفائدة فى ذكر السلسبيل هو أن ذلك الشراب يكون فى طعم الزنجبيل ، وليس فيه لذعة لأن نقيض اللذع هو السلاسة ، وقد عزوا إلى على بن أبى طالب عليه السلام أن معناه : سل سبيلا إليها ، وهو بعيد إلا أن يراد أن جملة قول

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾

القائل سلسبيلا جعلت علماً للعين ، كما قيل تأبط شراً ، وسميت بذلك ، لأنه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سبيلا بالعمل الصالح .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى نصب عيناً وجهان (أحدهما) أنه بدل من زنجبيلا (وثانيهما) أنه نصب على الاختصاص .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ سلسبيلا صرف لأنه رأس آية ، فصار كقوله الظنونا والسبيلا ، وقد تقدم فى هذه السورة بيان ذلك . واعلم أنه تعالى ذكر بعد ذلك من يكون خادماً فى تلك المجالس .

فقال ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ وقد تقدم تفسير هذين الوصفين فى سورة الواقعة والأقرب أن المراد به دوام كونهم على تلك الصورة التى لا يراد فى الخدم أبلغ منها ، وذلك يتضمن دوام حياتهم وحسنهم ومواظبتهم على الخدمة الحسنة الموافقة ، قال الفراء يقال مخلدون مسورون ويقال مقرطون . وروى نفطويه عن ابن الأعرابى مخلدون محلون .

﴿ والصفة الثالثة ﴾ قوله تعالى : ﴿ إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ﴾ وفى كيفية التشبيه وجوه (أحدها) شبهوا فى حسنهم وصفاء ألوانهم وانتشارهم فى مجالسهم ومنازلهم عند اشتغالهم بأنواع الخدمة باللؤلؤ المنثور ولو كان صفاً لشبهوا باللؤلؤ المنظوم ، ألا ترى أنه تعالى قال (ويطوف عليهم) فإذا كانوا يطوفون كانوا متناثرين (وثانيها) أنهم شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا انتثر من صدفه لأنه أحسن وأكثر ماء (وثالثها) قال القاضى هذا من التشبيه العجيب لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقاً يكون أحسن فى المنظر لوقوع شعاع بعضه على البعض فيكون مخالفاً للمجتمع منه .

واعلم أنه تعالى لما ذكر تفصيل أحوال أهل الجنة ، أتبعه بما يدل على أن هناك أموراً أعلى وأعظم من هذا القدر المذكور فقال ﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيراً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ رأيت هل له مفعول ؟ فيه قولان (الأول) قال الفراء : المعنى وإذا رأيت ما ثم وصلح إضمار ما كما قال (لقد تقطع بينكم) يريد ما بينكم ، قال الزجاج لا يجوز إضمار ما لأن ثم صلة وما موصولها ، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة (الثانى) أنه ليس له مفعول ظاهر ولا مقدر والغرض منه أن يشيع ويعم ، كأنه قيل وإذا وجدت الرؤية ثم ، ومعناه أن بصر الرائى أينما وقع لم يتعلق إدراكه إلا بنعيم كثير وملك كبير ، وثم فى موضع النصب على الظرف يعنى فى الجنة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن اللذات الدنيوية محصورة فى أمور ثلاثة . قضاء الشهوة ، وإمضاء

عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ

الغضب ، واللذة الخيالية التي يعبر عنها بحب المال والجاه ، وكل ذلك مستحقر فإن الحيوانات الخسيسة قد تشارك الإنسان في واحد منها ، فالملك الكبير الذي ذكره الله ههنا لابد وأن يكون مغايراً لتلك اللذات الحقيرة ، وما هو إلا أن تصير نفسه منقشة بقدس الملكوت متحلية بجلال حضرة اللاهوت ، وأما ماهو على أصول المتكلمين ، فالوجه فيه أيضاً أنه الثواب والمنفعة المقرونة بالتعظيم فبين تعالى في الآيات المتقدمة تفصيل تلك المنافع وبين في هذه الآية حصول التعظيم وهو أن كل واحد منهم يكون كالملك العظيم ، وأما المفسرون فمنهم من حمل هذا الملك الكبير على أن هناك منافع أزيد مما تقدم ذكره ، قال ابن عباس لايقدر واصف يصف حسنه ولا طيبه . ويقال إن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام ويرى أقصاه كما يرى أدناه ، وقيل لازوال له وقيل إذا أرادوا شيئاً حصل ، ومنهم من حمله على التعظيم . فقال الكلبي هو أن يأتي الرسول من عند الله بكرامة من الكسوة والطعام والشراب والتحف إلى ولي الله وهو في منزله فيستأذن عليه ، ولا يدخل عليه رسول رب العزة من الملائكة المقربين المطهرين إلا بعد الاستئذان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال بعضهم قوله (وإذا رأيت) خطاب لمحمد خاصة ، والدليل عليه أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت إن دخلت الجنة أترى عيناي ما ترى عيناك ؟ فقال نعم ، فبكى حتى مات ، وقال آخرون بل هو خطاب لكل أحد .

قوله تعالى : ﴿ عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وحمزة عاليهم بإسكان الياء والباقون بفتح الياء (أما القراءة الأولى) فالوجه فيها أن يكون عاليهم مبتدأ ، وثياب سندس خبره ، والمعنى ما يعلوهم من لباسهم ثياب سندس ، فإن قيل عاليهم مفرد ، وثياب سندس جماعة ، والمبتدأ إذا كان مفرداً لا يكون خبره جمعاً ، قلنا : المبتدأ ، وهو قوله (عاليهم) وإن كان مفرداً في اللفظ ، فهو جمع في المعنى ، نظيره قوله تعالى (مستكبرين به سامراً تهجرون ، فقطع دابر القوم) كأنه أفرد من حيث جعل بمنزلة المصدر (أما القراءة الثانية) وهي فتح الياء ، فذكروا في هذا النصب ثلاثة أوجه (الأول) أنه نصب على الظرف ، لأنه لما كان عالي بمعنى فوق أجرى مجراه في هذا الإعراب ، كما كان قوله (والركب أسفل منكم) كذلك وهو قول أبي علي الفارسي (والثاني) أنه نصب على الحال ، ثم هذا أيضاً يحتمل وجوهاً (أحدها) قال أبو علي الفارسي : التقدير : ولقاهم نضرة وسروراً حال مايكون عاليهم ثياب سندس (وثانيها) التقدير : وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً حال ما يكون عاليهم ثياب سندس (وثالثها) أن يكون التقدير ويطوف على الأبرار ولدان ، حال ما يكون الأبرار عاليهم ثياب سندس (ورابعها) حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ، حال ما يكون

وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ

عاليهم ثياب سندس ، فعلى الاحتمالات الثلاثة (الأول) تكون الثياب الأبرار ، وعلى الاحتمال الرابع تكون الثياب ثياب الولدان (الوجه الثالث) فى سبب هذا النصب ، أن يكون التقدير : رأيت أهل نعيم وملك عاليهم ثياب سندس .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ نافع وعاصم : خضر واستبرق ، كلاهما بالرفع ، وقرأ الكسائى وحمزة : كلاهما بالخفض ، وقرأ ابن كثير : خضر بالخفض ، واستبرق بالرفع ، وقرأ أبو عمرو وعبد الله بن عامر : خضر بالرفع ، واستبرق بالخفض ، وحاصل الكلام فيه أن خضراً يجوز فيه الخفض والرفع ، أما الرفع فإذا جعلتها صفة لثياب ، وذلك ظاهر لأنها صفة مجموعة لموصوف مجموعة ، وأما الخفض فإذا جعلتها صفة سندس ، لأن سندس أريد به الجنس ، فكان فى معنى الجمع ، وأجاز الأخفش وصف اللفظ الذى يراد به الجنس بالجمع ، كما يقال أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض إلا أنه قال إنه قبيح ، والدليل على قبحه أن العرب تجىء بالجمع الذى هو فى لفظ الواحد فيجرونه مجرى الواحد وذلك قولهم حصى أبيض وفى التنزيل (من الشجر الأخضر) و (أعجاز نخل منقعر) إذ كانوا قد أفردوا صفات هذا الضرب من الجمع ، فالواحد الذى فى معنى الجمع أولى أن تفرد صفته ، وأما استبرق فيجوز فيه الرفع والخفض أيضاً معاً ، أما الرفع فاذا أريد به العطف على الثياب ، كأنه قيل : ثياب سندس واستبرق وأما الخفض فإذا أريد إضافة الثياب إليه كأنه قيل ثياب سندس واستبرق ، والمعنى ثيابهما فأضاف الثياب إلى الجنسين كما يقال ثياب خز وكتان ، ويدل على ذلك قوله تعالى (ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق) واعلم أن حقائق هذه الآية قد تقدمت فى سورة الكهف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ السندس مارق من الديباج ، والاستبرق ما غلظ منه ، وكل ذلك داخل فى اسم الحرير قال تعالى (ولباسهم فيها حرير) ثم قيل إن الذين هذا لباسهم هم الولدان المخلدون ، وقيل بل هذا لباس الأبرار ، وكأنهم يلبسون عدة من الثياب فيكون الذى يعلوها أفضلها ، ولهذا قال (عاليهم) وقيل هذا من تمام قوله (متكئين فيها على الأرائك) ومعنى (عاليهم) أى فوق حجالهم المضروبة عليهم ثياب سندس ، والمعنى أن حجالهم من الحرير والديباج .

قوله تعالى : ﴿ وحلو أساور من فضة ﴾ وفيه سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ قال تعالى فى سورة الكهف (أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب) فكيف جعل تلك الأساور ههنا من فضة ؟ (والجواب) من ثلاثة أوجه (أحدها) أنه لا منافاة بين الأمرين فلعلهم يسورون بالجنسين إما على المعاقبة أو على الجمع كما تفعل النساء فى الدنيا (وثانيها) أن الطباع مختلفة فرب إنسان يكون استحسانه لبياض الفضة فوق استحسانه لصفرة الذهب ، فالله تعالى يعطى كل أحد ما تكون رغبته فيه أتم ، وميله إليه

وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾

أشد (وثالثها) أن هذه الأسورة من الفضة إنما تكون للولدان الذين هم الخدم وأسورة الذهب للناس .

﴿ السؤال الثانى ﴾ السوار إنما يليق بالنساء وهو عيب للرجال ، فكيف ذكر الله تعالى ذلك فى معرض الترغيب ؟ (الجواب) أهل الجنة جرد مرد شباب فلا يبعد أن يحلوا ذهباً وفضة وإن كانوا رجالا ، وقيل هذه الأسورة من الفضة والذهب إنما تكون لنساء أهل الجنة وللصبيان فقط ، ثم غلب فى اللفظ جانب التذكير ، وفى الآية وجه آخر ، وهو أن آلة أكثر الأعمال هى اليد وتلك الأعمال والمجاهدات هى التى يتوسل بها إلى تحصيل المعارف الإلهية والأنوار الصمدية ، فتكون تلك الأعمال جارية مجرى الذهب والفضة التى يتوسل بهما إلى تحصيل المطالب ، فلما كانت تلك الأعمال صادرة من اليد كانت تلك الأعمال جارية مجرى سوار الذهب والفضة ، فسميت الأعمال والمجاهدات بسوار الذهب والفضة ، وعبر عن تلك الأنوار الفائضة عن الحضرة الصمدية بقوله (وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) وبالجملة فقوله (وحلوا أساور من فضة) إشارة إلى قوله (والذين جاهدوا فينا) وقوله (وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) إشارة إلى قوله (لنهدينهم سبلنا) فهذا احتمال خطر بالبال ، والله أعلم بمراده .

قوله تعالى : ﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ الطهور فيه قولان (الأول) المبالغة فى كونه طاهراً ، ثم فيه على هذا التفسير احتمالات (أحدها) أنه لا يكون نجساً كخمر الدنيا (وثانيها) المبالغة فى البعد عن الأمور المستقذرة يعنى ما مسته الأيدى الوضرة ، وما داسته الأقدام الدنسة (وثالثها) أنها لا تؤول إلى النجاسة لأنها ترشح عرقاً من أبدانهم له ريح كريح المسك (القول الثانى) فى الطهور أنه المطهر ، وعلى هذا التفسير أيضاً فى الآية احتمالان (أحدهما) قال مقاتل هو عين ماء على باب الجنة تنبع من ساق شجرة من شرب منها نزع الله ما كان فى قلبه من غل وغش وحسد ، وما كان فى جوفه من قذر وأذى (وثانيهما) قال أبو قلابة يؤتون الطعام والشراب فإذا كان فى آخر ذلك أتوا بالشراب الطهور ، فيشربون فتطهر بذلك بطونهم ، ويفيض عرق من جلودهم مثل ريح المسك ، وعلى هذين الوجهين يكون الطهور ، مطهراً لأنه يطهر باطنهم عن الأخلاق الذميمة ، والأشياء المؤذية ، فإن قيل قوله تعالى (وسقاهم ربهم) هو عين ما ذكر تعالى قبل ذلك من أنهم يشربون من عين الكافور ، والزنجبيل ، والسلسبيل أو هذا نوع آخر ؟ قلنا بل هذا نوع آخر ، ويدل عليه وجوه (أحدها) دفع التكرار (وثانيها) أنه تعالى أضاف هذا الشراب إلى نفسه ، فقال (وسقاهم ربهم) وذلك يدل على فضل فى هذا دون غيره (وثالثها) ما روينا أنه تقدم إليهم الأطعمة والأشربة ، فإذا فرغوا منها أتوا بالشراب الطهور فيشربون ،

إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

فيطهر ذلك بطونهم ، ويفيض عرقاً من جلودهم مثل ريح المسك ، وهذا يدل على أن هذا الشراب مغاير لتلك الأشربة ، ولأن هـذا الشراب يهضم سائر الأشربة ، ثم له مع هذا الهضم تأثير عجيب ، وهو أنه يجعـل سـائر الأطعمة والأشربة عرقاً يفوح منـــه ريح كريح المسك ، وكل ذلك يدل على المغايرة (ورابعها) وهو أن الروح من عالم الملائـكة ، والأنوار الفائضة من جواهر أكابر الملائكة ، وعظمائهم على هذه الأرواح مشبهة بالمـاء العذب الذى يزيل العطش ويقوى البـدن ، وكما أن العيون متفاوتة فى الصفاء والـكثرة والقوة ، فـكذا ينابيع الأنوار العـلوية مختلفة ، فبعضها تـكون كافورية على طبع البرد واليبس ، ويكون صاحبها فى الدنيـا فى مقام الخوف والبـكاء والانقباض ، وبعضها تـكون زنجبيلية على طبع الحر واليبس ، فيـكون صاحب هذه الحالة قليـل الالتفات إلى ما سوى الله تعالى قليل المبالاة بالأجسام والجسمانيات ، ثم لا تزال الروح البشرية متنقلة من ينبوع إلى ينبوع ، ومن نور إلى نور ، ولا شك أن الأسباب والمسببات متناهيـة فى ارتقائها إلى واجب الوجود الذى هو النور المطلق جل جلاله وعز كماله ، فإذا وصل إلى ذلك المقام وشرب من ذلك الشراب انهضمت تلك الأشربة المتقدمة ، بل فنيت ، لأن نور ما سوى الله تعالى يضمحل فى مقابلة نور الله وكبريائه وعظمته ، وذلك هو آخر سير الصديقين ، ومنتهى درجاتهم فى الإرتقاء والكمال ، فلهذا السبب ختم الله تعالى ذكر ثواب الأبرار على قوله (وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) .

واعلم أنه تعالى لمـا تمم شرح أحوال السعداء ، قال تعـالى ﴿ إن هذا كان لـكم جزاءاً وكان سعيكم مشكوراً ﴾ .

اعلم أن فى الآية وجهين (الأول) قال ابن عباس المعنى أنه يقال لأهل الجنة بعـد دخولهم فيهـا ، ومشاهدتهم لنعيمها : إن هذا كان لـكم جزاء قد أعده الله تعالى لـكم إلى هـذا الوقت ، فهو كله لـكم بأعمالكم على قلة أعمالكم ، كما قال حاكياً عن الملائـكة إنهم يقولون لأهل الجنـة (سلام عليكم بمـا صبرتم فنعم عقبى الدار) وقال (كلوا واشربوا هنيئا بمـا أسلفتم فى الأيام الخالية) والغرض من ذكر هـذا الـكلام أن يزداد سرورهم ، فإنه يقـال للمعاقب : هذا بعملك الردىء فيزداد غمـه وألم قلبه ، ويقال للمثاب ، هـذا بطاعتك ، فيـكون ذلك تهنئـة له وزيادة فى سروره ، والقائل بهذا التفسير جعل القول مضمراً ، أى ويقال لهم هـذا الـكلام (الوجه الثانى) أن يكون ذلك إخباراً من الله تعـالى لعباده فى الدنيا ، فكأنه تعالى شرح جواب أهل الجنة ، أن هذا كان فى علمى وحكمى جزاء لـكم يامعاشر عبادى ، لـكم خلقتها ، ولأجلـكم أعددتها ، وبقى فى الآية سؤالان :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾

﴿ السؤال الأول ﴾ إذا كان فعل العبد خلقاً لله ، فكيف يعقل أن يكون فعل الله جزاء على فعل الله ؟ (الجواب) الجزء هو الكافى ، وذلك لا ينافى كونه فعلا لله تعالى .

﴿ السؤال الثانى ﴾ كون سعى العبد مشكوراً لله يقتضى كون الله شاكراً له (والجواب) كون الله تعالى شاكراً للعبد محال إلا على وجه المجاز ، وهو من ثلاثة أوجه (الأول) قال القاضى إن الثواب مقابل لعلمهم ، كما أن الشكر مقابل للنعم (الثانى) قال القفال إنه مشهور فى كلام الناس ، أن يقولوا للراضى بالقليل والمثنى به إنه شكور ، فيحتمل أن يكون شكر الله لعباده هو رضاه عنهم بالقليل من الطاعات ، وإعطاؤه إياهم عليه ثواباً كثيراً (الوجه الثالث) أن منتهى درجة العبد أن يكون راضياً من ربه مرضياً لربه على ما قال (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية) وكونها راضية من ربه ، أقل درجة من كونها مرضية لربه ، فقوله إن هذا كان لكم جزاء) إشارة إلى الأمر الذى به تصير النفس راضية من ربه وقوله (وكان سعيكم مشكوراً) إشارة إلى كونها مرضية لربه ، ولما كانت هذه الحال أعلى المقامات وآخر الدرجات لاجرم وقع الختم عليها فى ذكر مراتب أحوال الأبرار والصديقين .

قوله تعالى :﴿ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا ﴾

اعلم أنه سبحانه بين فى أول السورة أن الإنسان وجد بعد العدم بقوله (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) ثم بين أنه سبحانه خلقه من أمشاج ، والمراد منه إما كونه مخلوقاً من العناصر الأربعة أو من الأخلاط الأربعة أو من ماء الرجل والمرأة أو من الأعضاء والأرواح أو من البدن والنفس أو من أحوال متعاقبة على ذلك الجسم مثل كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ، وعلى أى هذه الوجوه تحمل هذه الآية ، فلذلك يدل على أنه لا بد من الصانع المختار جل جلاله وعظم كبرياؤه . ثم بين بعد ذلك أنى ما خلقته ضائعاً عاطلا باطلا ، بل خلقته لأجل الابتلاء والامتحان ، وإليه الإشارة بقوله (نبتليه) وههنا موضع الخصومة العظيمة القائمة بين أهل الجبر والقدر ، ثم ذكر تعالى أنى أعطيته جميع ما يحتاج إليه عند الابتلاء والامتحان ، وهو السمع والبصر والعقل ، وإليه الإشارة بقوله (فجعلناه سميعاً بصيراً) ولما كان العقل أشرف الأمور المحتاج إليها فى هذا الباب أفرده عن السمع والبصر ، فقال (إنا هديناه السبيل) ثم بين أن الخلق بعد هذه الأحوال صاروا قسمين : منهم شاكر ، ومنهم كفور ، وهذا الإنقسام باختيارهم كما هو تأويل القدرية ، أو من الله على ما هو تأويل الجبرية ، ثم إنه تعالى ذكر عذاب الكفار على الاختصار ، ثم ذكر بعد ذلك ثواب المطيعين على الاستقصاء ، وهو إلى قوله (وكان سعيكم مشكوراً) واعلم أن الاختصار فى ذكر العقاب مع الإطناب فى شرح الثواب يدل على أن جانب

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾

الرحمة أغلب وأقوى ، فظهر مما بينا أن السورة من أولها إلى هذا الموضع فى بيان أحوال الآخرة ، ثم إنه تعالى شرع بعد ذلك فى أحوال الدنيا ، وقدم شرح أحوال المطيعين على شرح أحوال المتمردين . أما المطيعون فهم الرسول وأمته ، والرسول هو الرأس والرئيس ، فلهذا خص الرسول بالخطاب . واعلم أن الخطاب إما النهى وإما الأمر ، ثم إنه تعالى قبل الخوض فيما يتعلق بالرسول من النهى والأمر ، قدم مقدمة فى تقوية قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإزالة الغم والوحشة عن خاطره ، وإنما فعل ذلك ، لأن الاشتغال بالطاعة والقيام بعهدة التكليف لا يتم إلا مع فراغ القلب ثم بعد هذه المقدمة . ذكر نهيه عن بعض الأشياء ، ثم بعد الفراغ عن النهى ، ذكر أمره ببعض الأشياء ، وإنما قدم النهى على الأمر ، لأن دفع الضرر أهم من جلب النفع ، وإزالة مالا ينبغى مقدم على تحصيل ما ينبغى ، ثم إنه تعالى ذكر بعد ذلك أحوال المتمردين والكفار على ما سيأتى تفصيل بيانه ، ومن تأمل فيما ذكرناه علم أن هذه السورة ، وقعت على أحسن وجوه الترتيب والنظام ، فالحمد لله الذى نور عقل هذا المسكين الضعيف بهذه الأنوار ، وله الشكر عليه أبد الآباد .

ولنرجع إلى التفسير ، فنقول أما تلك المقدمة ، فهى : قوله تعالى (إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا) واعلم أن المقصود من هذه الآية تثبيت الرسول وشرح صدره فيما نسبوه إليه من كهانة وسحر ، فذكر الله تعالى أن ذلك وحى من الله ، فلا جرم بالغ وكرر الضمير بعد إيقاعه اسما ، لأن تأكيداً على تأكيد أبلغ ، كأنه تعالى يقول إن كان هؤلاء الكفار يقولون إن ذلك كهانة ، فأنا الله الملك الحق أقول على سبيل التأكيد والمبالغة إن ذلك وحى حق وتنزيل صدق من عندي ، وهذا فيه فائدتان :

﴿إحداهما﴾ إزالة الوحشة المتقدمة الحاصلة بسبب طعن أولئك الكفار ، فإن بعض الجهال وإن طعنوا فيه إلا أن جبار السموات عظمه وصدقه .

﴿ والثانية ﴾ تقويته على تحمل التكاليف المستقبل ، وذلك لأن الكفار كانوا يبالغون فى إيذائه ، وهو كان يريد مقاتلتهم فلما أمره الله تعالى بالصبر على ذلك الإيذاء وترك المقاتلة ، وكان ذلك شاقاً عليه ، فقال له (إنا نزلنا عليك القرآن تنزيلا) فكأنه قال له إنى ما نزلت عليك هذا القرآن مفرقا منجما إلا لحكمة بالغة تقتضى تخصيص كل شىء بوقت معين ، ولقد اقتضت تلك الحكمة تأخير الإذن فى القتال ، فاصبر لحكم ربك الصادر عن الحكمة المحضة المبرأ عن العيب والعبث والباطل .

ثم إنه تعالى لما قدم هذه المقدمة ذكر النهى فقال تعالى ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ﴾ .

فإما أن يكون المعنى (فاصبر لحكم ربك) فى تأخير الإذن فى القتال ونظيره (فاصبروا حتى

يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين) أو يكون المعنى عاماً فى جميع التكاليف ، أى فاصبر فى كل ماحكم به ربك سواء كان ذلك تكليفاً خاصاً بك من العبادات والطاعات أو متعلقاً بالغير وهو التبليغ وأداء الرسالة ، وتحمل المشاق الناشئة من ذلك ، ثم فى الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ قوله (فاصبر لحكم ربك) دخل فيه أن (لا تطع آثماً أو كفوراً) فكان ذكره بعد هذا تكريراً (الجواب) الأول أمر بالمأمورات ، والثانى نهى عن المنهيات ودلالة أحدهما على الآخر بالالتزام لا بالتصريح فيكون التصريح به مفيداً .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أنه عليه السلام ماكان يطيع أحداً منهم ، فما الفائدة فى هذا النهى ؟ (الجواب) المقصود بيان أن الناس محتاجون إلى مواصلة التنبيه والإرشاد ، لأجل ماتركب فيهم من الشهوات الداعية إلى الفساد ، وأن أحداً لو استغنى عن توفيق الله وإمداده وإرشاده ، لكان أحق الناس به هو الرسول المعصوم ، ومتى ظهر ذلك عرف كل مسلم ، لأنه لابد له من الرغبة إلى الله والتضرع إليه فى أن يصونه عن الشبهات والشهوات .

﴿ السؤال الثالث ﴾ ما الفرق بين الآثم والكفور ؟ (الجواب) الآثم هو المقدم على المعاصى أى معصية كانت ، والكفور هو الجاحد للنعمة ، فكل كفور آثم ، أما ليس كل آثم كفوراً ، وإنما قلنا إن الآثم عام فى المعاصى كلها لأنه تعالى قال (ومن يشرك بالله . فقد افترى إثماً عظيما) فسمى الشرك إثماً ، وقال (ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) وقال (وذروا ظاهر الإثم وباطنه) وقال (يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير) فدلت هذه الآيات على أن هذا الإثم شامل لكل المعاصى ، واعلم أن كل من عبد غير الله فقد اجتمع فى حقه هذان الوصفان ، لأنه لما عبد غيره ، فقد عصاه وجحد إنعامه ، إذا عرفت هذا فنقول فى الآية قولان (الأول) أن المراد شخص معين ، ثم منهم من قال الآثم ، والكفور هو شخص واحد وهو أبو جهل ، ومنهم من قال الآثم هو الوليد والكفور هو عتبة ، قال القفال ، ويدل عليه أنه تعالى سمى الوليد أثيما فى قوله (ولا تطع كل حلاف مهين) إلى قوله (مناع للخير معتد أثيم) وروى صاحب الكشاف أن الآثم هو عتبة . والكفور هو الوليد لأن عتبة كان ركاباً للمآثم متعاطياً لأنواع الفسوق والوليد كان غالياً فى الكفر ، والقول الأول أولى لأنه متأيد بالقرآن ، يروى أن عتبة بن ربيعة قال للنبى صلى الله عليه وسلم ارجع عن هذا الأمر حتى أزوجك ولدى فإنى من أجمل قريش ولداً وقال الوليد : أنا أعطيك من المال حتى ترضى ، فإنى من أكثرهم مالا ، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ عشر آيات من أول (حم ـ السجدة إلى قوله ـ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) فانصرفا عنه وقال أحدهما ظننت أن الكعبة ستقع على (القول الثانى) أن الآثم والكفور مطلقان غير مختصين بشخص معين ، وهذا هو الأقرب إلى الظاهر ، ثم قال الحسن الآثم هو المنافق والكفور مشركوا العرب ، وهذا ضعيف بل الحق ما ذكرناه من أن الآثم عام والكفور خاص

وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا



﴿السؤال الرابع﴾ كانوا كلهم كفرة ، فما معنى القسمة فى قوله (آثماً أو كفوراً) ؟ (الجواب) (الكفور) أخبث أنواع الآثم ، فخصه بالذكر تنبيهاً على غاية خبثه ونهاية بعده عن الله .

﴿السؤال الخامس﴾ كلمة أو تقتضى النهى عن طاعة أحدهما فلم لم يذكر الواو حتى يكون نهياً عن طاعتهما جميعاً ؟ (الجواب) ذكروا فيه وجهين : (الأول) وهو الذى ذكره الزجاج واختاره أكثر المحققين أنه لو قيل ولا تطعهما لجاز أن يطيع أحدهما لأن النهى عن طاعة مجموع شخصين لا يقتضى النهى عن طاعة كل واحد منهما وحده ، أما النهى عن طاعة أحدهما فيكون نهياً عن طاعة مجموعهما لأن الواحد داخل فى المجموع ، ولقائل أن يقول هذا ضعيف ، لأن قوله (لا تطع) هذا وهذا معناه كن مخالفاً لأحدهما ، ولا يلزم من إيجاب مخالفة أحدهما إيجاب مخالفتهما معاً . فإنه لا يبعد أن يقول السيد لعبده إذا أمرك أحد هذين الرجلين فخالفه ، أما إذا توافقا فلا تخالفهما . (والثانى) قال الفراء تقدير الآية لا تطع منهم أحداً سواء كان (آثماً أو كفوراً) كقول الرجل لمن يسأله شيئاً : لا أعطيك سواء سألت أو سكت .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا النهى عقبه بالأمر ، فقال ﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا ﴾ وفى هذه الآية قولان :

﴿ الأول ﴾ أن المراد هو الصلاة قالوا لأن التقييد بالبكرة والأصيل يدل على أن المراد من قوله (واذكر اسم ربك) الصلوات . ثم قالوا البكرة هى صلاة الصبح والأصيل صلاة الظهر والعصر (ومن الليل فاسجد له) المغرب والعشاء ، فتكون هذه الكلمات جامعة الصلوات الخمس وقوله (وسبحه ليلا طويلا) المراد منه التهجد ، ثم اختلفوا فيه فقال بعضهم كان ذلك من الوجبات على الرسول عليه السلام ، ثم نسخ كما ذكرنا فى سورة المزمل واحتجوا عليه بأن قوله (فاسجد له وسبحه) أمر وهو للوجوب لا سيما إذا تكرر على سبيل المبالغة ، وقال آخرون بل المراد التطوع وحكمه ثابت .

﴿ القول الثانى ﴾ أن المراد من قوله (واذكر اسم ربك) إلى آخر الآية ليس هو الصلاة بل المراد التسبيح الذى هو القول والاعتقاد . والمقصود أن يكون ذاكراً لله فى جميع الأوقات ليلا ونهاراً بقلبه ولسانه ، وهو المراد من قوله (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا) .

واعلم أن فى الآية لطيفة أخرى وهى أنه تعالى قال (إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا) أى

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾

هديناك إلى هذه الأسرار ، وشرحنا صدرك بهذه الأنوار ، وإذ قد فعلنا بك ذلك فكن منقاداً مطيعاً لأمرنا ، وإياك وأن تكون منقاداً مطيعاً لغيرنا . ثم لما أمره بطاعته ، ونهاه عن طاعة غيره قال (واذكر اسم ربك) وهذا إشارة إلى أن العقول البشرية ليس عندها إلا معرفة الأسماء والصفات ، أما معرفة الحقيقة فلا ، فتارة يقال له (واذكر اسم ربك) وهو إشارة إلى معرفة الأسماء ، وتارة يقال له (واذكر ربك فى نفسك) وهو إشارة إلى مقام الصفات ، وأما معرفة الحقيقة المخصوصة التى هى المستلزمة لسائر اللوازم السلبية والإضافية ، فلا سبيل لشيء من الممكنات والمحدثات ، إلى الوصول إليها والاطلاع عليها ، فسبحان من اختفى عن العقول لشدة ظهوره واحتجب عنها بكمال نوره .

واعلم أنه تعالى لما خاطب رسوله بالتعظيم والنهى والأمر عدل إلى شرح أحوال الكفار والمتمردين ، فقال تعالى ﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا﴾ والمراد أن الذى حمل هؤلاء الكفار على الكفر ، وترك الالتفات والإعراض عما ينفعهم فى الآخرة ليس هو الشبهة حتى ينتفعوا بالدلائل المذكورة فى أول هذه السورة ، بل الشهوة والمحبة لهذه اللذات العاجلة والراحات الدنية . وفى الآية سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم قال وراءهم ولم يقل قدامهم ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) لما لم يلتفتوا إليه ، وأعرضوا عنه فكأنهم جعلوه وراء ظهورهم (وثانيها) المراد ويذرون وراءهم مصالح يوم ثقيل فأسقط المضاف (وثالثها) أن وراء تستعمل بمعنى قدام كقوله (من ورائه جهنم) (وكان وراءهم ملك) .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما السبب فى وصف يوم القيامة بأنه يوم ثقيل ؟ (الجواب) استعير الثقل لشدته وهوله ، من الشيء الثقيل الذى يتعب حامله ونحوه (ثقلت فى السموات والأرض) .

ثم إنه تعالى لما ذكر أن الداعى لهم إلى هذا الكفر حب العاجل ، قال ﴿نحن خلقناهم وشددنا أسرهم ، وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا﴾ .

والمراد أن حبهم للعاجلة يوجب عليهم طاعة الله من حيث الرغبة ومن حيث الرهبة ، أما من حيث الرغبة فلأنه هو الذى خلقهم وأعطاهم الأعضاء السليمة التى بها يمكن الانتفاع باللذات العاجلة ، وخلق جميع ما يمكن الانتفاع به ، فإذا أحبوا اللذات العاجلة ، وتلك اللذات لا تحصل

إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ

إلا عند حصول المنتفع وحصول المنتفع به ، وهذان لايحصلان إلا بتكوين الله وإيجاده ، فهذا مما يوجب عليهم الانقياد لله ولتكاليفه وترك التمرد والإعراض ، وأما من حيث الرهبة فلأنه قادر على أن يميتهم ، وعلى أن يسلب النعمة عنهم ، وعلى أن يلقيهم فى كل محنة وبلية ، فلأجل من فوت هذه اللذات العاجلة يجب عليهم أن ينقادوا لله ، وأن يتركوا هذا التمرد ، وحاصل الكلام كأنه قيل لهم هب أن حبكم لهذه اللذات العاجلة طريقة مستحسنة ، إلا أن ذلك يوجب عليكم الإيمان بالله والإنقياد له ، فلو أنكم توسلتم به إلى الكفر بالله ، والإعراض عن حكمه ، لكنتم قد تمردتم ، وهذا ترتيب حسن فى السؤال والجواب ، وطريقة لطيفة : وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال أهل اللغة الأسر الربط والتوثيق ، ومنه أسر الرجل إذا وثق بالقد وفرس مأسور الخلق وفرس مأسور بالعقب ، والمعنى شددنا توصيل أعضائهم بعضاً ببعض وتوثيق مفاصلهم بالأعصاب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (وإذا شئنا بدلنا أمثالهم) أى إذا شئنا أهلكناهم وآتينا بأشباههم فجعلناهم بدلا منهم ، وهو كقوله (على أن نبدل أمثالكم) والغرض منه بيان الاستغناء التام عنهم كأنه قيل لا حاجة بنا إلى أحد من المخلوقين البتة ، وبتقدير أن تثبت الحاجة فلا حاجة إلى هؤلاء الأقوام ، فإنا قادرون على إفنائهم ، وعلى إيجاد أمثالهم ، ونظيره قوله تعالى (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين ، وكان الله على ذلك قديراً) وقال (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز) ثم قيل بدلنا أمثالهم أى فى الخلقة ، وإن كانوا أضدادهم فى العمل ، وقيل (أمثالهم فى الكفر) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف فى قوله (وإذا شئنا) إن حقه أن يجىء بأن لا بإذا كقوله (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم) (إن يشأ يذهبكم) واعلم أن هذا الكلام كأنه طعن فى لفظ القرآن ، وهو ضعيف لأن كل واحد من إن وإذا حرف الشرط ، إلا أن حرف إن لايستعمل فيما يكون معلوم الوقوع ، فلا يقال إن طلعت الشمس أكرمتك ، أما حرف إذا فإنه يستعمل فيما كان معلوم الوقوع ، تقول آتيك إذا طلعت الشمس ، فههنا لما كان الله تعالى عالماً بأنه سيجىء وقت يبدل الله فيه أولئك الكفرة بأمثالهم فى الخلقة وأضدادهم فى الطاعة ، لا جرم حسن استعمال حرف إذا .

واعلم أنه تعالى لما شرح أحوال السعداء وأحوال الأشقياء قال بعده ﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ والمعنى أن هذه السورة بما فيها من

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

الترتيب العجيب والنسق البعيد والوعد والوعيد والترغيب والترهيب ، تذكرة للمتأملين وتبصرة للمستبصرين ، فمن شاء الخيرة لنفسه فى الدنيا والآخرة اتخذ إلى ربه سبيلا . واتخاذ السبيل إلى الله عبارة عن التقرب إليه ، واعلم أن هذه الآية من جملة الآيات التى تلاطمت فيها أمواج الجبر والقدر ، فالقدرى يتمسك بقوله تعالى (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) ويقول إنه صريح مذهبى ونظيره (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) والجبرى يقول متى ضمت هذه الآية إلى الآية التى بعدها خرج منه صريح مذهب الجبر ، وذلك لأن قوله (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) يقتضى أن تكون مشيئة العبد متى كانت خالصة فإنها تكون مستلزمة للفعل ، وقوله بعد ذلك (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) يقتضى أن مشيئة الله تعالى مستلزمة لمشيئة العبد ومستلزم المستلزم مستلزم ، فاذا مشيئة الله مستلزمة لفعل العبد ، وذلك هو الجبر ، وهكذا الاستدلال على الجبر بقوله (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) لأن هذه الآية أيضاً تقتضي كون المشيئة مستلزمة للفعل ثم التقرير ما تقدم ،

واعلم أن الاستدلال على هذا الوجه الذى لخصناه لايتوجه عليه كلام القاضى إلا أنا نذكره وننبه على ما فيه من الضعف ، قال القاضى المذكور فى هذه الآية اتخاذ السبيل إلى الله ، ونحن نسلم أن الله قد شاءه لأنه تعالى قد أمر به ، فلا بد وأن يكون قد شاءه . وهذا لا يقتضى أن يقال العبد لا يشاء إلا ما قد شاءه الله على الإطلاق ، إذ المراد بذلك الأمر المخصوص الذى قد ثبت أنه تعالى قد أراده وشاءه .

واعلم أن هذا الكلام الذى ذكره القاضى لا تعلق له بالاستدلال على الوجه الذى ذكرناه ، وأيضاً فحاصل ما ذكره القاضى تخصيص هذا العام بالصورة التى مر ذكرها فيما قبل هذه الآية ، وذلك ضعيف ، لأن خصوص ما قبل الآية لايقتضى تخصيص هذا العام به . لاحتمال أن يكون الحكم فى هذه الآية وارداً بحيث يعم تلك الصورة وسائر الصور ، بقى فى الآية سؤال يتعلق بالإعراب ، وهو أن يقال : ما محل أن يشاء الله ؟ وجوابه النصب على الظرف ، وأصله إلا وقت مشيئة الله ، وكذلك قراءة ابن مسعود « إلا ما شاء الله » لأن ما مع الفعل كأن معه ، وقرىء أيضاً يشاءون بالياء .

ثم قال تعالى ﴿ إن الله كان عليما حكيما ﴾ أى عليما بأحوالهم وما يكون منهم حيث خلقهم مع علمه بهم .

ثم ختم السورة فقال ﴿ يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً ﴾ اعلم أن خاتمة هذه السورة عجيبة ، وذلك لأن قوله (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) يدل على أن جميع

ما يصدر عن العبد فبمشيئة الله ، وقوله (يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً) يدل على أن دخول الجنة والنار ليس إلا بمشيئة الله ، فخرج من آخر هذه السورة إلا الله وما هو من الله ، وذلك هو التوحيد المطلق الذى هو آخر سير الصديقين ومنتهى معارجهم فى أفلاك المعارف الإلهية ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (يدخل من يشاء فى رحمته) إن فسرنا الرحمة الإيمان ، فالآية صريحة فى أن الإيمان من الله ، وإن فسرناها بالجنة كان دخول الجنة بسبب مشيئة الله وفضله وإحسانه لا بسبب الاستحقاق ، وذلك لأنه لو ثبت الاستحقاق لكان تركه يفضى إلى الجهل والحاجة المحالين على الله ، والمفضى إلى المحال محال فتركه محال فوجوده واجب عقلا وعدمه ممتنع عقلا ، وما كان كذلك لا يكون معلقاً على المشيئة البتة ، وأيضاً فلأن من كان مديوناً من إنسان فأدى ذلك الدين إلى مستحقه لا يقال بأنه إنما دفع ذلك القدر إليه على سبيل الرحمة والتفضل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً) يدل على أنه جف القلم بما هو كائن ، لأن معنى أعد أنه علم ذلك وقضى به ، وأخبر عنه وكتبه فى اللوح المحفوظ ، ومعلوم أن التغيير على هذه الأشياء محال ، فكان الأمر على ما بيناه وقلناه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الزجاج نصب الظالمين لأن قبله منصوباً ، والمعنى يدخل من يشاء فى رحمته ويعذب الظالمين وقوله (أعد لهم عذاباً أليماً) كالتفسير لذلك المضمر ، وقرأ عبد الله ابن الزبير : والظالمون ، وهذا ليس باختيار لأنه معطوف على يدخل من يشاء وعطف الجملة الإسمية على الجملة الفعلية غير حسن ، وأما قوله فى حم عسق (يدخل من يشاء فى رحمته والظالمون) فإنما ارتفع لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فينصبه فى المعنى ، فلم يجز أن يعطف على المنصوب قبله ، فارتفع بالابتداء ، وههنا قوله (أعد لهم عذاباً أليما) يدل على ذلك الناصب المضمر ، فظهر الفرق والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

٧٦ ــ سورة الانسان
(مدنية وهى إحدى وثلاثون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ٧٦ الانسان

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ٧٦ الانسان

﴿ سورة الإنسان مدنية وآياتها إحدى وثلاثون ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (هل أتى) استفهام تقرير وتقريب فإن هل بمعنى قد والأصل أهل أتى (على الإنسان) قبل زمان قريب (حين من الدهر) أى طائفة محدودة كائنة من الزمن الممتد (لم يكن شيئاً مذكوراً) بل كان شيئاً منسياً غير مذكور بالإنسانية أصلا كالعنصر والنطفة وغير ذلك والجملة المنفية حال من الإنسان أى غير مذكور أو صفة أخرى لحين على حذف العائد إلى الموصوف أى لم يكن فيه شيئاً مذكوراً والمراد بالإنسان الجنس فالإظهار فى قوله تعالى (إنا خلقنا الإنسان من

٢ نطفة) لزيادة التقرير أو آدم عليه السلام وهو المروى عن ابن عباس وقتادة والثورى وعكرمة والشعبى قال ابن عباس فى رواية أبى صالح عنه مرت به أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح وهو ملقى بين مكة والطائف وفى رواية الضحاك عنه أنه خلق من طين فأقام أربعين سنة ثم من حمأ مسنون فأقام أربعين سنة ثم من صلصال فأقام أربعين سنة فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة ثم نفخ فيه الروح وحكى الماوردى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الحين المذكور ههنا هو الزمن الطويل الممتد الذى لا يعرف مقداره فيكون الأول إشارة إلى خلقه عليه الصلاة والسلام وهذا بياناً لخلق بنيه (أمشاج) أخلاط جمع مشج أو مشيج من مشجت الشيء إذا خلقته ووصف النطفة به لما أن المراد بها مجموع الماءين ولكل منهما أوصاف مختلفة من اللون والرقة والغلظ وخواص متباينة فإن ماء الرجل أبيض غليظ فيه قوة العقد وماء المرأة أصفر رقيق فيه قوة الانعقاد يخلق منهما الولد فما كان من عصب وعظم وقوة فمن ماء الرجل وما كان من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة قال القرطبى وقد روى هذا مرفوعا وقيل مفرد كأعشار وأكياش وقيل أمشاج ألوان وأطوار فإن النطفة تصير علقة ثم مضغة إلى تمام الخلقة وقوله تعالى (نبتليه) حال من فاعل خلقنا أى مريدين ابتلاءه بالتكليف فيما سيأتى أو ناقلين له من حال إلى حال على طريقة الاستعارة كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما نصرفه فى بطن أمه نطفة ثم علقة إلى آخره (فجعلناه سميعاً بصيراً) ليتمكن من استماع الآيات التنزيلية ومشاهدة الآيات التكوينية

إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ٧٦ الانسان

إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ ٧٦ الانسان

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ ٧٦ الانسان

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ٧٦ الانسان

فهو كالمسبب عن الابتداء فلذلك عطف على الخلق المقيد به بالفاء ورتب عليه قوله تعالى (إنا هديناه ٣
السبيل) بإنزال الآيات ونصب الدلائل (إما شاكراً وإما كفوراً) حالان من مفعول هدينا أى *
مكناه وأقدرناه على سلوك الطريق الموصل إلى البغية فى حالتيه جميعاً وإما للتفصيل أو التقسيم أى هديناه
إلى ما يوصل إليها فى حاليه جميعاً أو مقسوماً إليهما بعضهم شاكر بالاهتداء والأخذ فيه وبعضهم
كفور بالإعراض عنه وقيل من السبيل أى عرفناه السبيل إما سبيلاً شاكراً أو كفوراً على وصف
السبيل بوصف سالكه مجازاً وقرىء أما بالفتح على حذف الجواب أى أما شاكراً فبتوفيقنا وأما
كفوراً فبسوء اختياره لا بمجرد إجبارنا من غير اختيار من قبله وإيراد الكفور لمراعاة الفواصل
والإشعار بأن الإنسان قلما يخلو من كفران ما وإنما المؤاخذ عليه الكفر المفرط (إنا أعتدنا للكافرين) ٤
من أفراد الإنسان الذى هديناه السبيل (سلاسل) بها يقادون (وأغلالا) بها يقيدون (وسعيرا) *
بها يحرقون وتقديم وعيدهم مع تأخرهم للجمع بينهما فى الذكر كما فى قوله تعالى يوم تبيض وجوه وتسود
وجوه فأما الذين أسودت وجوههم الآية ولأن الإنذار أهم وأنفع وتصدير الكلام وختمه بذكر
المؤمنين أحسن على أن فى وصفهم تفصيلا ربما يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم وقرىء
سلاسلا للتناسب (إن الأبرار) شروع فى بيان حسن حال الشاكرين إثر بيان سوء حال الكافرين ٥
وإيرادهم بعنوان البر للإشعار بما استحقوا به ما نالوه من الكرامة السنية والأبرار جمع بر أو بار كرب
وأرباب وشاهد وأشهاد قيل هو من يبر خالقه أى يطيعه وقيل من يمتثل بأمره تعالى وقيل من يؤدى
حق الله تعالى ويوفى بالنذر وعن الحسن البر من لا يؤذى الذر (يشربون من كأس) هى الزجاجة *
إذا كانت فيها خمر وتطلق على نفس الخمر أيضاً فمن على الأول ابتدائية وعلى الثانى تبعيضية أو بيانية
(كان مزاجها) أى ما تمزج به (كافورا) أى ماء كافور وهو اسم عين فى الجنة ماؤها فى بياض *
الكافور ورائحته وبرده والجملة صفة كأس وقوله تعالى (عيناً) بدل من كافورا وعن قتادة تمزج لهم ٦
بالكافور وتختم لهم بالمسك وقيل تخلق لهم رائحة الكافور وبياضه وبرده فكأنها مزجت بالكافور
فعينا على هذين القولين بدل من محل من كأس على تقدير مضاف أى يشربون خمرا خمر عين أو نصب
على الاختصاص وقوله تعالى (يشرب بها عباد الله) صفة عيناً أى يشربون بها الخمر لكونها ممزوجة *
بها وقيل ضمن يشرب معنى يلتذ وقيل الباء بمعنى من وقيل زائدة ويعضده قراءة ابن أبى عبلة يشربها

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ ٧٦ الانسان

وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ٧٦ الانسان

إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ٧٦ الانسان

إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ٧٦ الانسان

فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ٧٦ الانسان

---

* عباد الله وقيل الضمير للكأس والمعنى يشربون العين بتلك الكأس (يفجرونها تفجيراً) أي يجرونها حيثما شاؤا من منازلهم إجراء سهلا لايمتنع عليهم بل يجرى جرياً بقوة واندفاع والجملة صفة أخرى

٧ لعيناً وقوله تعالى (يوفون بالنذر) استئناف مسوق لبيان ما لأجله رزقوا ماذكر من النعيم مشتمل على نوع تفصيل لما ينبيء عنه اسم الأبرار إجمالا كأنه قيل ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك الرتبة العالية

* فقيل يوفون بما أوجبوه على أنفسهم فكيف بما أوجبه الله تعالى عليهم (ويخافون يوماً كان شره) عذابه

* (مستطيرا) فاشياً منتشرا فى الأقطار غاية الانتشار من استطار الحريق والفجر وهو أبلغ من طار

٨ بمنزلة استنفر من نفر (ويطعمون الطعام على حبه) أى كائنين على حب الطعام والحاجة إليه كما فى قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون أو على حب الإطعام بأن يكون ذلك بطيب النفس أو كائنين على حب الله تعالى أو إطعاماً كائناً على حبه تعالى وهو الأنسب لما سيأتى من قوله تعالى لوجه

* الله (مسكيناً ويتيما وأسيرا) أى أسير فإنه كان عليه الصلاة والسلام يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول أحسن إليه أو أسيرا مؤمناً فيدخل فيه المملوك والمسجون وقد سمى رسول الله صلى

٩ الله عليه وسلم الغريم أسيرا فقال غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك (إنما نطعمكم لوجه الله) على إرادة قول هو فى موقع الحال من فاعل يطعمون أى قائلين ذلك بلسان الحال أو بلسان المقال إزاحة لتوهم المن المبطل للصدقة وتوقع المكافأة المنقصة للأجر وعن الصديقة رضى الله تعالى عنها أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ثم تسأل الرسول ماقالوا فإذا ذكر دعاءهم دعت لهم بمثله ليبقى ثواب

* الصدقة لها خالصاً عند الله تعالى (لانريد منكم جزءا ولا شكورا) أى شكرا وهو تقرير وتأكيد

١٠ لما قبله (إنا نخاف من ربنا يوماً) أى عذاب يوم (عبوساً) يعبس فيه الوجوه أو يشبه الأسد العبوس

* فى الشدة والضراوة (قمطريرا) شديد العبوس فلذلك نفعل بكم مانفعل رجاء أن يقينا ربنا بذلك شره

١١ وقيل هو تعليل لعدم إرادة الجزاء والشكور أى إنا نخاف عقاب الله تعالى إن أردناهما (فوقاهم الله

* شر ذلك اليوم) بسبب خوفهم وتحفظهم عنه (ولقاهم نضرة وسرورا) أى أعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم نضرة فى الوجوه وسرورا فى القلوب .

وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ٧٦ الانسان

مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ ٧٦ الانسان

وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ٧٦ الانسان

١٢ (وجزاهم بما صبروا) بصبرهم على مشاق الطاعات ومهاجرة هوى النفس فى اجتناب المحرمات وإيثار الأموال (جنة) بستاناً يأكلون منه ماشاؤا (وحريراً) يلبسونه ويتزينون به وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن الحسن والحسين رضى الله عنهما مرضا فعادهما النبى صلى الله عليه وسلم فى ناس معه فقالوا لعلى رضى الله عنه لو نذرت على ولدك فنذر على وفاطمة رضى الله تعالى عنهما وفضة جارية لهما إن برئا مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام فشفيا وما معهم شىء فاستقرض على رضى الله عنه من شمعون الخيبرى ثلاث أصوع من شعير فطحنت فاطمة رضى الله تعالى عنها صاعا واختبزت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال السلام عليكم أهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين أطعمونى أطعمكم الله تعالى من موائد الجنة فآثروه وباتوا لم يذقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه ثم وقف عليهم فى الثالثة أسير ففعلوا مثل ذلك فلما أصبحوا أخذ على بيد الحسن والحسين رضى الله عنهم فأقبلوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال عليه الصلاة والسلام ما أشد مايسوؤنى ماأرى بكم وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة فى محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها فساءه ذلك فنزل جبريل عليه السلام وقال خذها يامحمد هناك الله تعالى فى أهل بيتك فأقرأه السورة

١٣ (متكئين فيها على الأرائك) حال من هم فى جزاهم والعامل فيها جزى وقيل صفة لجنة من غير إبراز الضمير والأرائك هى السرر فى الحجال وقوله تعالى (لايرون فيها شمساً ولا زمهريراً) إما حال ثانية من الضمير أو المستكن فى متكئين والمعنى أنه يمر عليهم هواء معتدل لاحار محم ولا بارد مؤذ وقيل الزمهرير القمر فى لغة طىء والمعنى أن هواءها مضىء بذاته لايحتاج إلى شمس ولا قمر

١٤ (ودانية عليهم ظلالها) عطف على ماقبلها حال مثلها أو صفة لمحذوف معطوف على جنة وأى جنة أخرى دانية عليهم ظلالها على أنهم وعدوا جنتين كما فى قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقرىء دانية بالرفع على أنه خبر لظلالها والجملة فى حيز الحال والمعنى لايرون فيها شمساً ولا زمهريرا والحال أن ظلالها دانية قالوا معناه أن ظلال أشجار الجنة قريبة من الأبرار مظلة عليهم زيادة فى نعيمهم على معنى أنه لو كان هناك شمس مؤذية لكانت أشجارها مظلة عليهم أنه لاشمس ثمة ولا قمر (وذللت قطوفها تذليلا) أى سخرت ثمارها لمتناوليها وسهل أخذها من الذل وهو ضد الصعوبة والجملة حال من دانية أى تدنو ظلالها عليهم مذللة لهم قطوفها أو معطوفة على دانية عليهم ظلالها ومذللة قطوفها وعلى تقدير رفع دانية فهى جملة فعلية معطوفة على جملة اسمية .

وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ ٧٦ الانسان

قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ ٧٦ الانسان

وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ ٧٦ الانسان

عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ٧٦ الانسان

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ٧٦ الانسان

وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ٧٦ الانسان

عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ٧٦ الانسان

---

١٥ (ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب) الكوب الكوز العظيم الذى لا أذن له ولا عروة (كانت
١٦ قواريراً) (قوارير من فضة) أى تكونت جامعة بين صفاء الزجاجة وشفيفها ولين الفضة وبياضها
والجملة صفة الأكواب وقرىء بتنوين قوارير الثانى أيضاً وقرئا بغير تنوين وقرىء الثانى بالرفع على
* هى قوارير (قدروها تقديراً) صفة لقوارير ومعنى تقديرهم لها أنهم قدروها فى أنفسهم وأرادوا أن
تكون على مقادير وأشكال معينة موافقة لشهواتهم فجاءت حسبما قدروها أو قدروها بأعمالهم الصالحة
فجاءت على حسبها وقيل الضمير للطائفين بها المدلول عليهم بقوله تعالى ويطاف عليهم فالمعنى قدروا شرابها
على قدر اشتهائهم وقرىء قدروها على البناء للمفعول أى جعلوا قادرين لها كما شاؤا من قدر منقولا من
١٧ قدرت الشىء (ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا) أى مايشبه الزنجبيل فى الطعم وكان الشراب
١٨ الممزوج به أطيب ماتستطيبه العرب وألذ ماتستلذبه (عيناً) بدل من زنجبيلا وقيل تمزج كأسهم بالزنجبيل
بعينه أو يخلق الله تعالى طعمه فيها فعينا حينئذ بدل من كأساً كأنه قيل ويسقون فيها كأساً كأس عين
* أو نصب على الاختصاص (فيها تسمى سلسبيلا) لسلاسة إنحدارها فى الحلق وسهولة مساغها يقال
شراب سلسل وسلسال وسلسبيل ولذلك حكم بزيادة الباء والمراد بيان أنها فى طعم الزنجبيل وليس
١٩ فيها لذعه بل نقيض اللذع هو السلاسة (ويطوف عليهم ولدان مخلدون) أى دائمون على ماهم عليه
* من الطراوة والبهاء (إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً) لحسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم
٢٠ وانبثاثهم فى مجالسهم ومنازلهم وانعكاس أشعة بعضهم إلى بعض (وإذا رأيت ثم) ليس له مفعول
* ملفوظ ولا مقدر ولا منوى بل معناه أن بصرك أينما وقع فى الجنة (رأيت نعيما وملكاً كبيراً) أى
هنيئاً واسعاً وفى الحديث أدنى أهل الجنة منزلة ينظر فى ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه
٢١ وقيل لازوال وقيل إذا أرادوا شيئاً كان وقيل يسلم عليهم الملائكة ويستأذنون عليهم (عاليهم ثياب

إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ٧٦ الانسان

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ ٧٦ الانسان

فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ٧٦ الانسان

وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ ٧٦ الانسان

سندس خضر) قيل عاليهم ظرف على أنه خبر مقدم وثياب مبتدأ مؤخر والجملة صفة أخرى لولدان كأنه قيل يطوف عليهم ولدان فوقهم ثياب الخ وقيل حال من ضمير عليهم أو حسبتهم أى يطوف عليهم ولدان عالياً للمطوف عليهم ثياب الخ أو حسبتهم لؤلؤاً منثوراً عالياً لهم ثياب الخ وقرىء عاليهم بالرفع على أنه مبتدأ خبره ثياب أى مايعلوهم من لباسهم ثياب سندس وقرىء خضر بالجر حملا على سندس بالمعنى لكونه اسم جنس (وإستبرق) بالرفع عطفا على ثياب وقرىء برفع الأول وجر الثانى وقرىء بالعكس وقرىء بجرهما وقرىء واستبرق بوصل الهمزة والفتح على أنه استفعل من البريق جعل علما لهذا النوع من الثياب (وحلوا أساور من فضة) عطف على يطوف عليهم ولا ينافيه قوله تعالى أساور من ذهب لإمكان الجمع والمعاقبة والتبعيض فإن حلى أهل الجنة يختلف حسب اختلاف أعمالهم فلعله تعالى يفيض عليهم جزاء لما عملوه بأيديهم حليا وأنواراً تتفاوت تفاوت الذهب والفضة أو حال من ضمير عاليهم بإضمار قد وعلى هذا يجوز أن يكون هذا للخدم وذاك للمخدومين (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) هو نوع آخر يفوق النوعين السالفين كما يرشد إليه إسناد سقيه إلى رب العالمين ووصفه بالطهورية فإنه يطهر شاربه عن دنس الميل إلى الملاذ الحسية والركون إلى ماسوى الحق فيتجرد لمطالعة جماله ملتذا بلقائه باقيا ببقائه وهى الغاية القاصية من منازل الصديقين ولذلك ختم بها مقالة ثواب الأبرار (إن هذا) على إضمار القول أى يقال لهم إن هذا الذى ذكر من فنون الكرامات (كان لكم جزاء) ٢٢ بمقابلة أعمالكم الحسنة (وكان سعيكم مشكورا) مرضيا مقبولا مقابلا بالثواب (إنا نحن نزلنا عليك ٢٣ القرآن تنزيلا) أى مفرقا منجما لحكم بالغة مقتضية له لاغيرنا كما يعرب عنه تكرير الضمير مع أن (فاصبر لحكم ربك) بتأخير نصرك على الكفار فإن له عاقبة حميدة (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) ٢٤ أى كل واحد من مرتكب الإثم الداعى لك إليه ومن الغالى فى الكفر الداعى إليه وأو للدلالة على أنهما سيان فى استحقاق العصيان والاستقلال به والتقسيم باعتبار مايدعونه إليه فإن ترتب النهى على الوصفين مشعر بعليتهما له فلابد أن يكون النهى عن الإطاعة فى الإثم والكفر فيماليس بإثم ولا كفر وقيل الآثم عتبة فإنه كان ركابا للمآثم متعاطيا لأنواع الفسوق والكفور الوليد فإنه كان غاليا فى الكفر شديد الشكيمة فى العتو (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا) ودوام على ذكره فى جميع الأوقات أودم ٢٥ على صلاة الفجر والظهر والعصر فإن الأصيل ينتظمهما .

وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ٧٦ الانسان

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ٧٦ الانسان

نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ ٧٦ الانسان

إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ ٧٦ الانسان

وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ ٧٦ الانسان

يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾ ٧٦ الانسان

---

٢٦ (ومن الليل فاسجد له) وبعض الليل فصل له ولعله صلاة المغرب والعشاء وتقديم الظرف لما فى صلاة
٢٧ الليل من مزيد كلفة وخلوص (وسبحه ليلا طويلا) وتهجد له قطعاً من الليل طويلا (إن هؤلاء)
* الكفرة (يحبون العاجلة) وينهمكون فى لذاتها الفانية (ويذرون وراءهم) أى أمامهم لا يستعدون أو
* ينبذون وراء ظهورهم (يوماً ثقيلا) لا يعبأون به ووصفه بالثقل لتشبيه شدته وهوله بثقل شىء فادح
٢٨ باهظ لحامله بطريق الاستعارة وهو كالتعليل لما أمر به ونهى عنه (نحن خلقناهم) لا غيرنا (وشددنا
* أسرهم) أى أحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب (وإذا شئنا بدلنا أمثالهم) بعد إهلاكهم (تبديلا) بديعاً
لا ريب فيه هو البعث كما ينبىء عنه كلمة إذا أو بدلنا غيرهم ممن يطيع كقوله تعالى يستبدل قوماً غيركم
٢٩ وإذ للدلالة على تحقق القدرة وقوة الداعية (إن هذه تذكرة) إشارة إلى السورة أو الآيات القريبة
* (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) أى فمن شاء أن يتخذ إليه تعالى سبيلا أى وسيلة توصله إلى ثوابه اتخذه
٣٠ أى تقرب إليه بالعمل بما فى تضاعيفها وقوله تعالى (وما تشاؤن إلا أن يشاء الله) تحقيق للحق ببيان
أن مجرد مشيئتهم غير كافية فى اتخاذ السبيل كما هو المفهوم من ظاهر الشرطية أى وما تشاؤن اتخاذ السبيل
ولا تقدرون على تحصيله فى وقت من الأوقات إلا وقت مشيئته تعالى تحصيله لكم إذ لا دخل لمشيئة
العبد إلا فى الكسب وإنما التأثير والخلق لمشيئة الله عز وجل وقرىء يشاؤن بالياء وقرىء إلا ما يشاء
* الله وقوله تعالى (إن الله كان عليما حكيما) بيان لكون مشيئته تعالى مبنية على أساس العلم والحكمة
والمعنى أنه تعالى مبالغ فى العلم والحكمة فيعلم ما يستأهله كل أحد فلا يشاء لهم إلا ما يستدعيه علمه وتقتضيه
٣١ حكمته وقوله تعالى (يدخل من يشاء فى رحمته) بيان لأحكام مشيئته المترتبة على علمه وحكمته أى
يدخل فى رحمته من يشاء أن يدخله فيها وهو الذى يصرف مشيئته نحو اتخاذ السبيل إليه تعالى حيث
* يوفقه لما يؤدى إلى دخول الجنة من الإيمان والطاعة (والظالمين) وهم الذين صرفوا مشيئتهم إلى خلاف
* ما ذكر (أعد لهم عذاباً أليما) أى متناهياً فى الإيلام قال الزجاج نصب الظالمين لأن ما قبله منصوب
أى يدخل من يشاء فى رحمته ويعذب الظالمين ويكون أعد لهم تفسيراً لهذا المضمر وقرىء بالرفع على

سورة الانسان

وتسمى سورة الدهر والابرار والامشاج وهل أتى وهي مكية عند الجمهور على ما في البحر وقال مجاهد وقتادة مدنية كلها وقال الحسن وعكرمة والكلبي مدنية الا آية واحدة فمكية وهي ولا تطع منهم آثما أو كفورا وقيل مدنية الا من قوله تعالى فاصبر لحكم ربك الى آخرها فانه مكي وعن ابن عادل حكاية مدنيتها على الاطلاق عن الجمهور وعليه الشيعة وآيها احدى وثلاثون آية بلا خلاف والمناسبة بينها وبين ما قبلها في غاية الوضوح

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾

أصله على ما قيل أهل على أن الاستفهام للتقرير أي الحمل على الاقرار بما دخلت عليه والمقرر به من ينكر البعث وقد علم انهم يقولون نعم قد مضى على الانسان حين لم يكن كذلك فيقال فالذى أوجده بعد ان لم يكن كيف يمتنع عليه احياؤه بعد موته وهل بمعنى قد وهي للتقريب أي تقريب الماضي من الحال فلما سدت هل مسد الهمزة دلت على معناها ومعنى الهمزة معا ثم صارت حقيقة في ذلك فهي للتقرير والتقريب واستدل على ذلك الاصل بقول زيد الخيل

سائل فوارس يربوع بشدتنا ✡ أهل رأونا بسفح القاع ذى الاكم

وقيل هي للاستفهام ولا تقريب وجمعها مع الهمزة في البيت للتأكيد كما فى قوله * ولا للمابهم أبداد واء * بل التأكيد هنا أقرب لعدم الاتحاد لفظا على ان السيرافي قال الرواية الصحيحة أم هل رأونا على أن أم منقطعة بمعنى بل وقال السيوطى في شرح شواهد المغنى الذى رأيته فى نسخة قديمة من ديوان زيد فهل رأونا بالفاء وعن ابن عباس وقتادة هي هنا بمعنى قد وفسرها بها جماعة من

النحاة كالكسائي وسيبويه والمبرد والفراء وحملت على معنى التقريب ومن الناس من حملها على معنى التحقيق
وقال أبو عبيدة مجازها قد أتى على الانسان وليس باستفهام وكأنه أراد ليس باستفهام حقيقة وانما هي
للاستفهام التقريري ويرجع بالآخرة الى قد أتى ولعل مراد من فسرها بذلك كابن عباس وغيره ما ذكر
لا انها بمعنى قد حقيقة وفي المغنى ماتفيدك مراجعته بصيرة فراجعه والمراد بالانسان الجنس على ماأخرجه
ابن المنذر عن ابن عباس والحين طائفة محدودة من الزمان شاملة للكثير والقليل والدهر الزمان الممتد الغير المحدود
ويقع على مدة العالم جميعها وعلى كل زمان طويل غير معين والزمان عام للكل والدهر وعاء الزمان كلام فلسفي
وتوقف الامام أبو حنيفة في معنى الدهر منكرا أي في المراد به عرفا في الايمان حتى يقال بماذا يحنث اذا
قال والله لا أكلمه دهرا والمعرف عنده مدة حياة الحالف عند عدم النية وكذا عند صاحبيه والمنكر
عندهما كالحين وهو معرفا ومنكرا كالزمان ستة أشهر ان لم تكن نية أيضا وبها مانوى على الصحيح وما اشتهر
من حكاية اختلاف فتاوى الخلفاء الاربعة في ذلك على عهده عليه الصلاة والسلام مستدلا كل بدليل وقوله
صلى الله تعالى عليه وسلم بعد الرفع اليه أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم الا انه اختار فتوى
الامير كرم الله تعالى وجهه بان الحين يوم وليلة لما فيه من التيسير لا يصح كما لا يخفى على الناقد البصير ولو
صح لم يعدل عن فتوى الامير معدن البسالة والفتوة بعد أن اختارها مدينة العلم ومفخر الرسالة والنبوة
والمعنى هنا قد أتى أو هل أتى على جنس الانسان قبل زمان قريب طائفة محدودة مقدرة كائنة من الزمان الممتد لم
يكن شيئا مذكورا بل كان شيئا غير مذكور بالانسانية أصلا أي غير معروف بها على ان النفي راجع الى القيد
والمراد انه معدوم لم يوجد بنفسه بل كان الموجود أصله مما لا يسمى انسانا ولا يعرف بعنوان الانسانية وهو
مادته البعيدة أعني العناصر أو المتوسطة وهي الاغذية أو القريبة وهي النطفة المتولدة من الاغذية المخلوقة من
العناصر وجملة لم يكن الخ حال من الانسان أي غير مذكور وجوز أن تكون صفة لحين بحذف العائد عليه
أي لم يكن فيه شيئاً مذكورا كما في قوله تعالى (واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئاً) واطلاق الانسان
على مادته مجاز بجعل ماهو بالقوة منزلا منزلة ما هو بالفعل أو هو من مجاز الاول وقيل المراد بالانسان
آدم عليه السلام وأيد الاول بقوله تعالى ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ فان الانسان فيه معرفة
معادة فلا يفترقان كيف وفي اقامة الظاهر مقام المضمر فضل التقرير والتمكين في النفس فاذا اختلفا عموما
وخصوصا فاتت الملايمة ولا شك أن الحمل على آدم عليه السلام في هذا لا وجه له ولا نقض به على ارادة
الجنس بناء على أنه لا عموم فيه ولا خصوص نعم دل قوله سبحانه من نطفة على أن المراد غيره أو هو تغليب
وقيل يجعل ما للاكثر للكل مجازا في الاسناد أو الطرف ورويت ارادته عن قتادة والثوري وعكرمة والشعبي وابن عباس
أيضا وقال في رواية أبي صالح عنه مرت به أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح وهو ملقى بين مكة والطائف وفي
رواية الضحاك عنه انه خلق من طين فاقام أربعين سنة ثم من حما مسنون فأقام أربعين سنة ثم من صلصال فاقام
أربعين سنة فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة ثم نفخ فيه الروح وحكى الماوردي عنه أن الحين المذكور ههنا هو
الزمن الطويل الممتد الذي لا يعرف مقداره وروى نحوه عن عكرمة فقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أنه
قال ان من الحين حينا لا يدرك وتلا الآية فقال والله ما يدرى كم أتى عليه حتى خلقه الله تعالى
ورأيت لبعض المتصوفة ان هل للاستفهام الانكاري فهو في معنى النفي أي ماأتى على الانسان
حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا وظاهره القول بقدم الانسان في الزمان على معنى انه لم يكن
زمان الا وفيه انسان وهو القدم النوعي كما قال به من قال من الفلاسفة وهو كفر بالاجماع ووجه

بانهم عنوا شيئية الثبوت لقدم الانسان عندهم بذلك الاعتبار دون شيئية الوجود ضرورة انه بالنسبة اليها حادث زمانا ويرشد الى هذا قول الشيخ محي الدين في الباب ٣٥٨ من الفتوحات المكية لولم يكن في العالم من هو على صورة الحق ماحصل المقصود من العلم بالحق أعنى العلم الحادث في قوله سبحانه كنت كنزا لم أعرف فاحببت ان أعرف فخلقت الخلق وتعرفت اليهم فعرفوني فجعل نفسه كنزا والكنز لايكون الا مكتنزا في شيء فلم يكن كنز الحق نفسه الا في صورة الانسان الكامل في شيئية ثبوته هناك كان الحق مكنوزا فلما البس الحق الانسان ثوب شيئية الوجود ظهر الكنز بظهوره فعرفه الانسان الكامل بوجوده وعلم انه كان مكنوزا فيه في شيئية ثبوته وهو لا يشعر به انتهى ولا يخفى ان الاشياء كلها في شيئية الثبوت قديمة لا الانسان وحده ولعلهم يقولون الانسان هو كل شيء لانه الامام المبين وقدقال سبحانه وكل شيء أحصيناه في امام مبين والكلام في هذا المقام طويل ولا يسعنا ان نطيل بيدانا نقول كون هل هنا للانكار منكر وان دعوى صحة ذلك لاحدى الكبر والذى فهمه أجلة من الصحابة رضى الله تعالى عنهم من الآية الاخبار الايجابى أخرج عبد بن حميد وغيره عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه انه سمع رجلا يقرأ هل أتى على الانسان شيء من الدهر لم يكن شيئا مذكورا فقال ليتها تمت وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه انه سمع رجلا يتلو ذلك فقال ياليتها تمت فعوتب في قوله هذا فأخذ عودا من الارض فقال ياليتنى كنت مثل هذا ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ جمع مشج بفتحتين كسبب وأسباب أو مشج بفتح فكسر ككتف وأكتاف أو مشيج كشهيد وأشهاد ونصير وأنصار أى اخلاط جمع خلط بمعنى مختلط ممتزج يقال مشجت الشيء اذا خلطته ومزجته فهو مشيج وممشوج وهو صفة لنطفة ووصف بالجمع وهي مفردة لان المراد بها مجموع ماء الرجل والمرأة والجمع قد يقال على مافوق الواحد أو باعتبار الاجزاء المختلفة فيهما رقة وغلظا وصفرة وبياضا وطبيعة وقوة وضعفا حتى اختص بعضها ببعض الاعضاء على ماأراده الله تعالى بحكمته فخلقه بقدرته وفي بعض الآثار ان ماكان من عصب وعظم وقوة فمن ماء الرجل وما كان من لحم ودم فمن ماء المرأة والحاصل انه نزل الموصوف منزلة الجمع ووصف بصفة أجزائه وقيل هو مفرد جاء على أفعال كاعشار وأكياش في قولهم برمة أعشار أى متكسرة وبرد أكياش أى مغزول غزله مرتين واختاره الزمخشرى والمشهور عن نص سيبويه وجمهور النحاة ان افعالا لايكون جمعا وحكى عنه انه ذهب الى ذلك في انعام ومعنى نطفة مختلطة عند الاكثرين نطفة اختلط وامتزج فيها الماءان وقيل اختلط فيها الدم والبلغم والصفراء والسوداء وقيل الامشاج نفس الاخلاط التى هي عبارة عن هذه الاربعة فكانه قيل من نطفة هي عبارة عن اخلاط أربعة وأخرج ابن المنذر عن مجاهد أنه قال امشاج أى ألوان أى ذات الوان فان ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فاذا اختلطا ومكثا في قعر الرحم اخضرا كما يخضر الماء بالمكث وروى عن الكلبى واخرج عن زيد بن أسلم انه قال الامشاج العروق التى في النطفة وروى ذلك عن ابن مسعود أى ذات عروق وروى عن عكرمة وكذا ابن عباس انه قال امشاج اطوار أى ذات أطوار فان النطفة تصير علقة ثم مضغة وهكذا الى تمام الخلقة ونفخ الروح وقوله تعالى ﴿نَبْتَلِيهِ﴾ حال من فاعل خلقنا والمراد مريدين ابتلاءه واختباره بالتكليف فيما بعد على أن الحال مقدرة او ناقلين له من حال الى حال ومن طور الى طور على طريقة الاستعارة لان المنقول يظهر في كل طور ظهورا آخر كظهور نتيجة الابتلاء والامتحان بعده وروى نحوه عن ابن عباس وعلى الوجهين ينحل ماقيل ان الابتلاء بالتكليف وهو يكون بعد جعله سميعا بصيرا لا قبل فكيف يترتب عليه قوله سبحانه ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ وقيل الكلام على التقديم والتأخير والجملة استئناف تعليلى أى فجعلناه سميعا بصيرا

لنبتليه وحكى ذلك عن الفراء وعسف لان التقديم لا يقع في حاق موقعه لالفظا لاجل الفاء ولا معنى لانه لايتجه السؤال قبل الجعل والاوجه الاول وهذا الجعل كالمسبب عن الابتلاء لان المقصود من جعله كذلك ان ينظر الآيات الآفاقية والانفسية ويسمع الادلة السمعية فلذلك عطف على الخلق المقيد به بالفاء ورتب عليه قوله تعالى ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ لانه جملة مستأنفة تعليلية في معنى لاناهديناه أى دللناه على مايوصله من الدلائل السمعية كالآيات التنزيلية والعقلية كالآيات الافاقية والانفسية وهو أنما يكون بعد التكليف والابتلاء ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ حالان من مفعول هديناه واما للتفصيل باعتبار تعدد الاحوال مع اتحاد الذات أى هديناه ودللناه على مايوصل الى البغية في حالتيه جميعا من الشكر والكفر أو للتقسيم للمهدى باختلاف الذوات والصفات أى هديناه السبيل مقسوما اليها بعضهم شاكر بالاهتداء للحق وطريقه بالاخذ فيه وبعضهم كفور بالاعراض عنه وحاصله دللناه على الهداية والاسلام فمنهم مهتد مسلم ومنهم ضال كافر وقيل حالان من السبيل أى عرفناه السبيل اما سبيلا شاكرا واماسبيلاكفورا على وصف السبيل بوصف سالكه مجازا والمراد به لايخفى وعن السدى ان السبيل هنا سبيل الخروج من الرحم وليس بشيء أصلا وقرأ أبوالسمال وأبو العاج(١) أما بفتح الهمزة في الموضعين وهي لغة حكاها أبو زيد عن العرب وهى التى عدها بعض الناس على ما قال أبو حيان في حروف العطف وأنشدوا

تلقحها اما شمال عرية * واما صبا جنح العشى هبوب

وجعلها الزمخشرى أما التفصيلية المتضمنة معنى الشرط على معنى أماشاكرا فبتوفيقنا وأما كفورا فبسوء اختياره وهذا التقدير ابراز منه للمذهب قيل ولا عليه ان يجعله من باب يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا كانه قيل أماشاكرا فبهدايتنا أى دعائنا أواقدارنا على مافسر به الهداية وأما كفورا فبها أيضا الاختلاف وجه الدعاء لان الهداية ههنا ليست في مقابلة الضلال وهذا جار على المذهبين وسالم عن حذف مالادليل عليه وجوز في الانتصاف ان يكون التقدير أما شاكرا فثاب وأما كفورا فعاقب وايراد الكفور بصيغة المبالغة لمراعاة الفواصل والاشعار بأن الانسان قلما يخلو من كفران ما وانما المؤاخذ عليه الكفر المفرط ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ هيأنا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ من افراد الانسان الذى هديناه السبيل ﴿سَلَاسِلَ﴾ بها يقادون ﴿وَأَغْلَالًا﴾ بها يقيدون ﴿وَسَعِيرًا﴾ بها يحرقون وتقديم وعيدهم مع تأخرهم للجمع بينهما في الذكر كما في قوله تعالى يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فاما الذين اسودت وجوههم الآية ولان الانذار انسب بالمقام وحقيق بالاهتمام ولان تصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أحسن على ان وصفهم تفصيلا ربما يخل تقديمه بتجاوب اطراف النظم الكريم وقرأ نافع والكسائى وأبو بكر والاعمش سلاسلا بالتنوين وصلا وبالالف المبدلة منه وقفا وقال الزمخشرى وفيه وجهان أحدهما ان تكون هذه النون بدلا عن حرف الاطلاق ويجرى الوصل مجرى الوقف والثانى ان يكون صاحب القراءة ممن ضرى برواية الشعر ومرن لسانه على صرف غير المنصرف وفي الاول ان الابدال من حروف الاطلاق في غير الشعر قليل كيف وضم اليه اجراء الوصل مجرى الوقف وفي الثانى تجويز القراءة بالتشهى دون سداد وجهها في العربية والوجه انه لقصد الازدواج والمشاكلة فقد جوزوا لذلك صرف مالاينصرف لاسيما الجمع فانه سبب ضعيف لشبهه بالمفرد في جمعه كصواحبات يوسف ونواكسى الابصار ولهذا جوز بعضهم صرفه مطلقا كما قيل

والصرف في الجمع أتى كثيرا * حتى ادعى قوم به التخييرا

---

(١) قوله وأبوالعاج وهوكثير بن عبد الله السلمى شامى ولى البصرة لهشام بن عبد الملك اه منه

وحكى الاخفش عن قوم من العرب ان لغتهم صرف كل مالا ينصرف الا أفعل من وصرف سلاسلا ثابت في مصاحف المدينة ومكة والكوفة والبصرة وفي مصحف أبي وعبد الله بن مسعود وروى هشام عن ابن عامر سلاسل في الوصل وسلاسلا بألف دون تنوين في الوقف ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ ﴾ شروع في بيان حسن حال الشاكرين اثر بيان حال سوء الكافرين وايرادهم بعنوان البر للاشعار بما استحقوا به ما نالوه من الكرامة السنية مع تجديد صفة مدح لهم والابرار جمع بر كرب وأرباب أو بار كشاهد وأشهاد بناء على أن فاعلا يجمع على أفعال والبر المطيع المتوسع في فعل الخير وقيل من يؤدي حق الله تعالى ويوفي بالنذر وعن الحسن هو الذي لايؤذي الذر ولا يرضى الشر ﴿ يَشْرَبُونَ ﴾ في الآخرة ﴿ مِنْ كَأْسٍ ﴾ هي كما قال الزجاج الاناء اذا كان فيه الشراب فاذا لم يكن لم يسم كأسا وقال الراغب الكأس الاناء بما فيه من الشراب ويسمى كل واحد منهما بانفراده كاسا والمشهور انها تطلق حقيقة على الزجاجة اذا كانت فيها خمر ومجازاً على الخمر بعلاقة المجاورة والمراد بها ههنا قيل الخمر فمن تبعيضية أو بيانية وقيل الزجاجة التي فيها الخمر فمن ابتدائية وقوله تعالى ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ أظهر ملاءمة للاول والظاهر ان هذا على منوال كان الله عليما حكيما والمجيء بالفعل للتحقيق والدوام وقيل كان تامة من قوله تعالى كن فيكون والمزاج مايمزج به كالحزام لما يحزم به فهو اسم آلة وكافور على ماقال الكلبي علم عين في الجنة ماؤها في بياض الكافور وعرفه وبرده وصرف لتوافق الآي والكلام على حذف مضاف أي ماء كافور والجملة صفة كأس وهذا القول خلاف الظاهر ولعله ان لم يصح فيه خبر لايقبل وقرأ عبد الله قافورا بالقاف بدل الكاف وهما كثيرا مايتعاقبان في الكلمة كقولهم عربي قح وكح وقوله تعالى ﴿ عَيْناً ﴾ بدل من كافور وقال قتادة يمزج لهم بالكافور ويختم لهم بالمسك وذلك لبرودة الكافور وبياضه وطيب رائحته فالكافور بمعناه المعروف وقيل ان خمر الجنة قد أودعها الله تعالى اذ خلقها أوصاف الكافور الممدوحة فكونه مزاجا مجاز في الاتصاف بذلك فعينا على هذين القولين بدل من محل كأس على تقدير مضاف أي يشربون خمرا خمر عين أو نصب على الاختصاص باضمار أعني أو أخص كما قال المبرد وقيل على الحال من ضمير مزاجها وقيل من كأس وساغ لوصفه وأريد بذلك وصفها بالكثرة والصفاء وقيل منصوب بفعل يفسره ما بعد أعني قوله تعالى ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ ﴾ على تقدير مضاف أيضا أي يشربون ماء عين يشرب بها الخ وتعقب بان الجملة صفة عينا فلا يعمل فعلها بها وما لا يعمل لايفسر عاملا وأجيب بمنع كونها صفة على هذا الوجه والتركيب عليه نحو رجلا ضربته نعم هي صفة عين على غير هذا الوجه والباء للالصاق وليست للتعدية وهي متعلقة معنى بمحذوف أي يشرب الخمر ممزوجة بها أي بالعين عباد الله وهو كما تقول شربت الماء بالعسل هذا اذا جعل كافور علم عين في الجنة وأما على القولين الآخرين فقيل وجه الباء ان يجعل الكلام من باب ☆ يجرح في عراقيبها نصلي ☆ لافادة المبالغة وقيل الباء للتعدية وضمن يشرب معنى يروى فعدى بها وقيل هي بمعنى من وقيل هي زائدة والمعنى يشربها كما في قول الهذلي

شربن بماء البحر ثم ترفعت * متى لجج خضر لهن نئيج

ويعضد هذا قراءة ابن أبي عبلة يشربها وقيل ضمير بها للكاس والمعنى يشربون العين بتلك الكأس وعليه يجوز أن يكون عينا مفعولا ليشرب مقدما عليه وعباد الله المؤمنون أهل الجنة ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ صفة أخرى لعينا أي يجرونها حيث شاؤا من منازلهم اجراء سهلا لايمتنع عليهم على

ان التنكير للتنويع أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن ابن شوزب انه قال معهم قضبان ذهب يفجرون بها فيتبع الماء قضبانهم وفي بعض الآثار ان هذه العين في دار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تفجر الى دور الانبياء عليهم السلام والمؤمنين (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ) استئناف مسوق لبيان مالاجله يرزقون هذا النعيم مشتمل على نوع تفصيل لما ينبىء عنه اسم الابرار اجمالا كانه قيل ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك المرتبة العالية فقيل يوفون الخ وأفيدانه استئناف للبيان ومع ذلك عدل عن أوفوا الى المضارع للاستحضار والدلالة على الاستمرار والوفاء بالنذر كناية عن أداء الواجبات كلها العلم ماعداه بالطريق الاولى واشارة النص فان من اوفى بما أوجبه على نفسه كان ايفاء ماأوجبه الله تعالى عليه أهم له وأحرى وجعل ذلك كناية هو الذى يقتضيه ما روى عن قتادة وعن عكرمة ومجاهد ابقاؤه على الظاهر قالا اى اذا نذروا طاعة فعلوها (وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ) عذابه (مُسْتَطِيرًا) فاشيا منتشرا في الاقطار غاية الانتشار من استطار الحريق والفجر وهو ابلغ من طار لان زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى وللطلب ايضا دلالة على ذلك لان ما يطلب من شانه ان يبالغ فيه وفى وصفهم بذلك اشعار بحسن عقيدتهم واجتنابهم عن المعاصى (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ) اى كائنين على حب الطعام اى مع اشتهائه والحاجة اليه فهو من باب التتميم ويجاوبه من القرآن قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وروى عن ابن عباس ومجاهد أوعلى حب الاطعام بان يكون ذلك بطيب نفس وعدم تكلف واليه ذهب الحسن بن الفضل وهو حسن أو كائنين على حب الله تعالى أو اطعاما كائنا على حبه تعالى ولوجهه سبحانه وابتغاء مرضاته عز وجل واليه ذهب الفضيل بن عياض وأبو سليمان الدارانى فعلى حبه من باب التكميل وزيفه بعضهم وقال الاول هو الوجه ويجاوبه القرآن على أن في قوله تعالى لوجه الله بعد غنية عن قوله سبحانه لوجه الله وفيه نظر بل لعله الانسب لذلك وذكر الطعام مع ان الاطعام يغنى عنه لتعيين مرجع الضمير على الاول ولان الطعام كالعلم فيما فيه قوام البدن واستقامة البنية وبقاء النفس ففى التصريح به تأكيد لفخامة فعلهم على الاخيرين ويجوز ان يعتبر على الاول أيضا ثم الظاهر أن المراد باطعام الطعام حقيقته وقيل هو كناية عن الاحسان الى المحتاجين والمواساة معهم باى وجه كان وان لم يكن ذلك بالطعام بعينه فكأنه ينفعون بوجوه المنافع (مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) قيل أى أسير كان فعن الحسن انه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يؤتى بالاسير فيدفعه الى بعض المسلمين فيقول أحسن اليه فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه وقال قتادة كان أسيرهم يومئذ المشرك وأخوك المسلم أحق ان تطعمه وأخرج ابن عساكر عن مجاهد أنه قال لما صدر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالاسارى من بدر أنفق سبعة من المهاجرين أبوبكر وعمر وعلى والزبير وعبد الرحمن وسعد وأبو عبيدة بن الجراح على أسارى مشركى بدر فقالت الانصار قتلناهم في الله وفي رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم وتعينونهم بالنفقة فانزل الله تعالى فيهم تسع عشرة آية ان الابرار يشربون الى قوله تعالى عينا فيها تسمى سلسبيلا ففيه دليل على أن اطعام الاسارى وان كانوا من أهل الشرك حسن ويرجى ثوابه والخبر الاول قال ابن حجر لم يذكره من يعتمد عليه من أهل الحديث وقال ابن العراقى لم أقف عليه والخبر الثانى لم أره لفرد غير ابن عساكر ولا وثوق لى بصحته وهو يقتضى مدنية هذه الآيات وقد علمت الخلاف في ذلك نعم عند عامة العلماء يجوز الاحسان الى الكفار في دار الاسلام ولا تصرف اليهم الواجبات وقال ابن جبير وعطاء هو الاسير من أهل القبلة قال الطيبى هذا انما يستقيم اذا اتفق الاطعام في دار الحرب من المسلم لاسير في أيديهم وقيل هو الاسير المسلم ترك في بلاد الكفار

رهينة وخرج لطلب الفداء وروى محي السنة عن مجاهد وابن جبير وعطاء أنهم قالوا هو المسجون من أهل القبلة وفيه دليل على ان اطعام أهل الحبوس المسلمين حسن وقد يقال لا يحسن اطعام المحبوس لو فاء دين يقدر على وفائه انما امتنع عنه تعنتا ولغرض من الاغراض النفسانية وعن أبى سعيد الخدرى هو المملوك والمسجون وتسمية المسجون اسيرا مجاز لمنعه عن الخروج واما تسمية المملوك فمجاز ايضا لكن قيل باعتبار ماكان وقيل باعتبار شبهه به في تقييده باسار الامر وعدم تمكنه من فعل مايهوى وعد الغريم أسيرا لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم غريمك أسيرك فأحسن الى اسيرك وهو على التشبيه البليغ الا انه قيل في هذا الخبر ماقيل في الخبر الاول وقال ابوحمزة اليمانى هى الزوجة وضعفه ههنا ظاهر ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ على ارادة قول هو في موضع الحال من فاعل يطعمون اى قائلين ذلك بلسان الحال لما يظهر عليهم من امارات الاخلاص وعن مجاهد اما انهم ماتكلموا به ولكن علمه الله تعالى منهم فاثنى سبحانه به عليهم ليرغب فيه راغب او بلسان المقال ازاحة لتوهم المن المبطل للصدقة وتوقع المكافأة المنقصة للاجر وعن الصديقة رضى الله تعالى عنها أنها كانت تبعث بالصدقة الى اهل بيت ثم تسال الرسول ماقالوا فاذاذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى لها ثواب الصدقة خالصا عند الله عز وجل وجوزان يكون قولهم هذا لهم لطفا وتفقيها وتنبيها على ماينبغى ان يكون عليه من اخلص لله تعالى وليس بذاك وقوله سبحانه ﴿ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً ﴾ بالافعال ﴿ وَلَا شُكُورًا ﴾ ولا شكرا وثناء بالاقوال تقرير وتاكيد لما قبله ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا ﴾ أي عذاب يوم فهو على تقدير مضاف أو ان خوفه كناية عن خوف مافيه ﴿ عَبُوسًا ﴾ تعبس فيه الوجوه على أنه من الاسناد المجازى كما في نهاره صائم فقد روى عن ابن عباس ان الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران أو يشبه الاسد العبوس على أنه من الاستعارة المكنية التخييلية لكن لايخفى ان العبوس ليس من لوازم الاسد وانما اشتهر وصفه به ففى التخييلية ضعف ما وقيل انه من التشبيه البليغ ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ شديد العبوس ويقال شديدا صعبا كانه التف شره بعضه ببعض وقيل طويلا وهو رواية عن ابن عباس وجاء قماطر وأنشدوا لاسد بن ناغصة

واصطليت الحروب في كل يوم ☆ باسل الشر قمطرير الصباح

وقول آخر بنى عمنا هل تذكرون بلاءنا ☆ عليكم اذاماكان يوم قماطر

والى الاول ذهب الزجاج فقال القمطرير الذى يعبس حتى يجتمع ما بين عينيه ويقال اقمطرت الناقة اذا رفعت ذنبها وزمت بانفها وجمعت قطريها أي جانبيها كانها تفعل ذلك اذا لحقت كبرا وقيل لتضع حملها فاشتقاقه عنده على ما قيل من قطر بالاشتقاق الكبير والميم زائدة وهذا لايلزم الزجاج فيجوز أن يكون مشتقا كذلك من القمط ويقال قمطه اذا شده وجمع أطرافه وفي البحر يقال اقمطر فهو مقمطر وقمطرير وقماطر اذا صعب واشتد واختلف فى هذا الوزن وأكثر النحاة لايثبتون افعل في أوزان الافعال وهذه الجملة جوز أن تكون علة لاحسانهم وفعلهم المذكور كانه قيل نفعل بكم ما نفعل لانا نخاف يوما صفته كيت وكيت فنحن نرجو بذلك أن يقينا ربنا جل وعلا شره وأن تكون علة لعدم ارادة الجزاء والشكور أى انا لانريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله تعالى على طلب المكافأة بالصدقة والى الوجهين أشار في الكشاف وقال في الكشف الثانى أوجه ليبقى قوله لوجه الله خالصا غير مشوب بحظ النفس من جلب نفع أو دفع ضر ولو جعل علة للاطعام المعلل على معنى انما خصصنا الاحسان لوجهه تعالى لانا نخاف يوم جزائه ومن خافه لازم الاخلاص لكان وجها ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴾ بسبب خوفهم وتحفظهم عنه وقرأ أبو

جعفر فوقاهم بشد القاف وهو أوفق بقوله تعالى ﴿ وَلَقَّيهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ أى أعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم نضرة في الوجوه وسرورا في القلوب ﴿وَجَزَيهُمْ بِمَا صَبَرُوا ﴾ بصبرهم على مشاق الطاعات ومهاجرة هوى النفس في اجتناب المحرمات وايثار الاموال ما كلا وملبسا ﴿ جَنَّةً ﴾ بستانا عظيما يأكلون منه ماشاؤا ﴿ وَحَرِيرًا ﴾ يلبسونه ويتزينون به ومن رواية عطاء عن ابن عباس ان الحسن والحسين مرضا فعادهما جدهما محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما وعادهما من عادهما من الصحابة فقالوا لعلى كرم الله تعالى وجهه يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك فنذر على وفاطمة وفضة جارية لهما ان برآ مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام شكرا فالبس الله تعالى الغلامين ثوب العافية وليس عند آل محمد قليل ولا كثير فانطلق على كرم الله تعالى وجهه الى شمعون اليهودى الخيبرى فاستقرض منه ثلاثة اصوع من شعير فجاء بها فقامت فاطمة رضى الله تعالى عنها الى صاع فطحنته وخبزت منه خمسة أقراص على عددهم وصلى على كرم الله تعالى وجهه مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المغرب ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه فوقف بالباب سائل فقال السلام عليكم يا أهل بيت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أنا مسكين من مساكين المسلمين أطعمونى أطعمكم الله تعالى من موائد الجنة فآثروه وباتوا لم يذوقوا شيئا الا الماء واصبحوا صياما ثم قامت فاطمة رضى الله تعالى عنها الى صاع آخر فطحنته وخبزته وصلى على كرم الله تعالى وجهه مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المغرب ثم اتى المنزل فوضع الطعام بين يديه فوقف يتيم بالباب وقال السلام عليكم يا أهل بيت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يتيم من أولاد المهاجرين أطعمونى أطعمكم الله تعالى من موائد الجنة فآثروه ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئا الا الماء القراح واصبحوا صياما فلما كان يوم الثالث قامت فاطمة رضى الله تعالى عنها الى الصاع الثالث وطحنته وخبزته وصلى على كرم الله تعالى وجهه مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المغرب فأتى المنزل فوضع الطعام بين يديه فوقف اسير بالباب فقال السلام عليكم يا أهل بيت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أنا أسير محمد عليه الصلاة والسلام اطعمونى اطعمكم الله فاثروه وباتوا لم يذوقوا الا الماء القراح فلما أصبحوا أخذ على كرم الله تعالى وجهه الحسن والحسين وأقبلوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ورآهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال يا أبا الحسن ما أشد ما يسوءنى ما أرى بكم وقام فانطلق معهم الى فاطمة رضى الله تعالى عنها فرآها في محرابها قد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها من شدة الجوع فرق لذلك صلى الله تعالى عليه وسلم وساءه ذلك فهبط جبريل عليه السلام فقال خذها يا محمد هناك الله تعالى فى أهل بيتك قال وما آخذ يا جبريل فأقرأه هل أتى على الانسان السورة وفي رواية ابن مهران فوثب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حتى دخل على فاطمة فأكب عليها يبكى فهبط جبريل عليه السلام بهذه الآية ان الابرار يشربون الى آخره وفى رواية عن عطاء ان الشعير كان عن اجرة سقى نخل وانه جعل في كل يوم ثلث منه عصيدة فآثروا بها واخرج ابن مردويه عن ابن عباس انه قال في قوله سبحانه ويطعمون الخ نزلت في على كرم الله تعالى وجهه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وعليهما وسلم ولم يذكر القصة والخبر مشهور بين الناس وذكره الواحدى في كتاب البسيط وعليه قول بعض الشيعة

إلام آلام وحتى متى * أعاتب في حب هذا الفتى

وهل زوجت غيره فاطم * وفي غيره هل أتى هل أتى

وتعقب بانه خبر موضوع مفتعل كما ذكره الترمذى وابن الجوزى وآثار الوضع ظاهرة عليه ا

لفظا ومعنى ثم انه يقتضى أن تكون السورة مدنية لان بناءه على كرم الله تعالى وجهه على فاطمة رضى الله تعالى عنها كان بالمدينة وهي عند ابن عباس المروى هو عنه على ما أخرج النحاس مكية وكذا عند الجمهور فى قول واقول أمر مكيتها ومدنيتها مختلف فيه جدا كما سمعت فلا جزم فيه بشيء وابن الجوزى نقل الخبر فى تبصرته ولم يتعقبه على انه ممن يتساهل في أمر الوضع حتى قالوا انه لايعول عليه في هذا الباب فاحتمال أصل النزول في الامير كرم الله تعالى وجهه وفاطمة رضى الله تعالى عنها قائم ولاجزم بنفي ولا اثبات لتعارض الاخبار ولا يكاد يسلم المرجح عن قيل وقال نعم لعله يترجح عدم وقوع لكيفية التى تضمنتها الرواية الاولى ثم انه على القول بنزولها فيهما لا يتخصص حكمها بهما بل يشمل كل من فعل مثل ذلك كما ذكره الطبرسى من الشيعة في مجمع البيان راويا له عن عبد الله بن ميمون عن أبى عبد الله رضى الله تعالى عنه وعلى القول بعدم النزول فيهما لا يتطامن مقامهما ولا ينقص قدرهما اذ دخولهما في الابرار أمر جلى بل هو دخول أولى فهما هما وماذا عسى يقول أمرؤ فيهما سوى ان عليا مولى المؤمنين ووصى النبي وفاطمة البضعة الاحمدية والجزء المحمدى وأما الحسنان فالروح والريحان وسيدا شباب الجنان وليس هذا من الرفض بشيء بل ماسواه عندى هو الغى

أنا عبد الحق لاعبد الهوى ❁ لعن الله الهوى فيمن لعن

ومن اللطائف على القول بنزولها فيهم انه سبحانه لم يذكر فيها الحور العين وانما صرح عز وجل بولدان مخلدين رعاية لحرمة البتول وقرة عين الرسول لئلا تثور غيرتها الطبيعية اذا احست بضرة وهى في أفواه تخيلات الطباع البشرية ولو في الجنة مرة ولا يخفى عليك ان هذا زهرة ربيع ولا تتحمل الفرك ثم التذكير على ذلك أيضا من باب التغليب وقرأ على كرم الله تعالى وجهه جازاهم على وزن فاعل ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ حال من هم في جزاهم والعامل جزى وخص الجزاء بهذه الحالة لانها أتم حالات المتنعم ولا يضر في ذلك قوله تعالى بما صبروا لان الصبر فى الدنيا وما تسبب عليه في الآخرة وقيل صفة الجنة ولم يبرز الضمير مع ان الصفة جارية على غير من هي عليه فلم يقل متكئين هم فيها لعدم الالباس كما في قوله

قومى ذرى المجد بانوها وقد علمت ✫ بكنه ذلك عدنان وقحطان

وأنت تعلم ان هذا رأى الكوفية ومذهب البصرية وجوب ابراز الضمير في ذلك مطلقا وفي البيت كلام وقيل يجوز كونه حالا مقدرة من ضمير صبروا وليس بذاك والارائك جمع اريكة وهي السرير في الحجلة من دونه ستر ولا يسمى مفردا أريكة وقيل هو كل ما اتكيء عليه من سرير او فراش أو منصة وكان تسميته بذلك لكونه مكانا للاقامة أخذا من قولهم أرك بالمكان أروكا أقام واصل الاروك الاقامة على رعى الاراك الشجر المعروف ثم استعمل فى غيره من الاقامات وقوله تعالى ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ اما حال ثانية من الضمير أو حال من المستكن فى متكئين وجوز فيه كونه صفة لجنة أيضا والمراد من ذلك أن هواءها معتدل لا حر شمس يحمى ولا شدة برد يؤذى وفي الحديث هواء الجنة سجسج لا حر ولاقر فقصد بنفى الشمس نفيها ونفى لازمها معا لقوله سبحانه ولا زمهريرا فكانه قيل لا يرون فيها حرا ولا قرا وقيل الزمهرير القمر وعن ثعلب أنه فى لغة طيء وأنشد

وليلة ظلامها قد اعتكر ✫ قطعتها والزمهرير ما زهر

وليس هذا لان طبيعته باردة كما قيل لانه في حيز المنع بل قيل أنه برهن على أن الانوار كلها حارة فيحتمل ان ذلك المعانه أخذا له من ازمهر الكوكب لمع والمعنى على هذا القول ان هواءها مضيء بذاته لايحتاج الى شمس ولاقمر وفي الحديث

ان الجنة لاخطر بها هي ورب الكعبة نوريتلالأ وريحانة تهتز وقصر مشيد الحديث ثم أنها مع هذا قد يظهر فيها نور اقوى من نورها كما تشهد به الاخبار الصحيحة وفي بعض الآثار عن ابن عباس بينا أهل الجنة في الجنة اذ رأوا ضوأ كضوء الشمس وقد أشرقت الجنان به فيقول أهل الجنة يارضوان ماهذا وقد قال ربنا لايرون فيها شمسا ولازمهريرا فيقول لهم رضوان ليس هـذا بشمس ولاقمر ولكن علي وفاطمة رضى الله تعالى عنهما ضحكا فأشرقت الجنان من نور ثغريهما ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا ﴾ عطف على الجملة وحالها حالها أو صفة لمحذوف معطوف على جنة فيما سبق أى وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها على أنهم وعدوا جنتين كما في قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقرأ أبو حيوة دانية بالرفع وخرج على ان دانية خبر مقدم لظلالها والجملة فى حيز الحال على ان الواو عاطفة أو حالية أو في حيز الصفة على ان الواو عاطفة أيضا أو للالصاق على مايراه الزمخشرى وقال الاخفش ظلالها مرفوع بدانية على الفاعلية واستدل بذلك على جواز عمل اسم الفاعل من غير اعتماد نحو قائم الزيدون وقد علمت أنه لايصلح للاستدلال لقيام ذلك الاحتمال على انه يجوزان يكون خبر المبتدا مقدر فيعتمد أى وهى دانية عليهم ظلالها وقرأ أبى ودان كقاض ولايتم الاستدلال به للاخفش أيضاوان كان بينه وبين ماتقدم فرق ماوقرأ الاعمش ودانيا عليهم نحو خاشعا أبصارهم والمراد أن ظلال أشجار الجنة قريبة من الابرار مظلة عليهم زيادة فى نعيمهم ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ أى سخرت ثمارها لمتناولها وسهل أخذها من الذل وهو ضد الصعوبة قال قتادة ومجاهد وسفيان ان كان الانسان قائماً تناول الثمر دون كلفة وان كان قاعدا أو مضطجعا فكذلك فهذا تذليلها لايرد اليد عنها بعدولاشوك والجملة حال من ضمير دانية أى تدنو ظلالها عليهم مذللة لهم قطوفها أو معطوفة على ماقبلها وهى فعلية معطوفة على اسمية في قراءة دانية بالرفع ونكتة التخالف ان استدامة الظل مطلوبة هنالك والتجدد في تذليل القطوف على حسب الحاجة ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ ﴾ جمع اناء ككساء واكسية وهو ما يوضع فيه الشيء والاوانى جمع الجمع ﴿ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ جمع كوب وهو قدح لا عروة له كما قال الراغب وفى القاموس كوز لاعروة له أولاخرطوم له وقيل الكوز العظيم الذى لاأذن له ولاعروة ﴿ كَانَتْ ﴾ أى تلك الاكواب ﴿ قَوَارِيرَا ﴾ جمع قارورة وهي اناء رقيق من الزجاج يوضع فيه الاشربة ونصبه على الحال فان كان تامة وهو كما تقول خلقت قوارير وقوله تعالى ﴿ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ بدل والـكلام على التشبيه البليغ فالمراد تكونت جامعة بين صفاء الزجاجة وشفيفها ولين الفضة وبياضها وأخرج عبد الرازق وسـعيد بن منصور والبيهقى عن ابن عباس قال لو أخذت فضة من فضة الدنيـا فضربتها حتى جعلتها مثـل جناح الذباب لم ير الماء من ورائها ولكن قوارير الجنة ببيـاض الفضة مع صفاء القوارير وأخرج ابن أبى حاتم عنه أنه قال ليس في الجنة شيء الا قد اعطيتم في الدنيا شبهه الا قوارير من فضة وقرأ نافع والكسائى وأبو بكر بتنوين قوارير في الموضعين وصلا وابداله الفا وقفا وابن كثير بمنع صرف الثـانى ويصرف الاول لوقوعه في الفاصلة وآخر الآية وقف عليه بالف مشاكلة لغيره من كلمات الفواصل والتنوين عند الزمخشرى في الاول بدل من ألف الاطلاق كما فى قوله * ياصاح ماهاج العيون الذرفن * وفي الثاني للاتباع فتذكر والقراءة بمنع صرفهما لحفص وابن عامر وحمزة وأبى عمرو وقرأ الاعمش الثانى قوارير بالرفع أى هى قوارير ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ أى قدروا تلك القوارير في أنفسهم فجاءت حسب ماقدروا لامزيد على ذلك ولا يمكن ان يقع زيادة عليه وفي معناه قول الطائى

ولو صورت نفسك لم تزدها * على مافيك من كرم الطباع

فانه ينبيء عن كون نفسه خلقت على أتم ماينبغي من مكارم الصفات بحيث لامزيد على ذلك فضمير قدروها للابرار الطاف عليهم أو قدروا شرابها على قدر الرى وهو ألذ للشارب قال ابن عباس اتوا بها على الحاجة لا يفضلون شيأ ولا يشتهون بعدها شيأ وعن مجاهد تقديرها انها ليست بالملأى التى تفيض ولا بالناقصة التى تغيض فالضمير على ماهو الظاهر للسقاة الطائفين بها المدلول عليه بقوله تعالى يطاف عليهم وقد روى عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس انه قال قدرتها السقاة وقيل المعنى قدروها باعمالهم الصالحة فجاءت على حسبها والضمير على هذا قيل للملائكة وقيل للسقاة وقرأ على كرم الله تعالى وجهه وابن عباس والسلمى والشعبى وقتادة وزيد بن على والجحدرى والاصمعى عن أبى عمرو وابن عبد الخالق عن يعقوب وغيرهم قدروها على البناء للمفعول واختلف في تخريجها فقال أبو على كان اللفظ قدروا عليها وفي المعنى قلب لان حقيقته أن يقال قدرت عليهم فهو نحو قوله تعالى ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة وقول العرب اذا طلعت الجوزاء ارتقى العود على الحرباء وقال الزمخشرى وجه ذلك ان يكون من قدرت الشىء بالتخفيف أى بينت مقداره فنقل الى التفعيل فتعدى لاثنين أحدهما الضمير النائب عن الفاعل والثانى ها والمعنى جعلوا قادرين لها كما شاؤا وأطلق لهم ان يقدروا على حسب مااشتهوا وقال أبو حاتم قدرت الاوانى على قدر ريهم ففسر بعضهم هذا بان في الكلام حذفا وهو أنه كان قدر على قدر ريهم اياها فحذف على فصار قدر نائب الفاعل ثم حذف فصار ريهم نائب الفاعل ثم حذف وصاروا والجمع نائب الفاعل واتصل المفعول الثانى بقدر فصار قدروها وقال أبو حيان الاقرب أن يكون الاصل قدر ريهم منها تقديرا فحذف المضاف وهو الرى وأقيم الضمير مقامه فصار قدروا منها ثم اتسع في الفعل فحذفت من ووصل الفعل الى الضمير بنفسه فصار قدروها فلم يكن فيه الا حذف مضاف واتساع في المجرور ولا يخفى ان القلب زيف وماقرره البعض تكلف جداً وفي كون مااختاره أبو حيان أقرب مما اختاره جار الله نظر ولعله أكثر تكلفا منه وقوله تعالى (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا) يجرى فيه معظم ما جرى في قوله تعالى (يشربون من كأس كان مزاجها كافورا) الخ من الاوجه والزنجبيل قال الدينورى نبت في أرض عمان وهو عروق تسرى في الارض وليس بشجرة ومنه ما يحمل من بلاد الزنج والصين وهو الاجود وكانت العرب تحبه لانه يوجب لذعا فى اللسان اذا مزج بالشراب فيلتذون ولذا يذكرونه في وصف رضاب النساء قال الاعشى

كان القرنفل والزنجبيل ✡ باتا بفيها واريا مسورا

وقال عمرو المسيب بن علس وكان طعم الزنجبيل به ✡ اذ ذقته وسلافة الخمر

وعده بعضهم في المعربات وكون الزنجبيل اسما للعين في الجنة مروى عن قتادة وقال يشرب منها المقربون صرفا وتمزج لسائر أهل الجنة والظاهر أنهم تارة يشربون من كاس مزاجها كافور وتارة يسقون من كاس مزاجها زنجبيل ولعل ذكر يسقون هنا دون يشربون لانه الانسب بما تقدمه من قوله تعالى ويطاف عليهم الخ ويمكن ان يكون فيه رمز الى ان هذه الكاس أعلى شأنا من الكأس الاولى وعن الكلبى يسقى بجامين الاول مزاجه الكافور والثانى مزاجه الزنجبيل والسلسبيل كالسلسل والسلسال قال الزجاج ماكان من الشراب غاية في السلاسة وسهولة الانحدار في الحلق وقال ابن الاعرابى لم أسمع السلسبيل الا في القرآن وكان العين انما سميت بذلك لسلاستها وسهولة مساغها قال عكرمة عين سلسل ماؤها وقال مجاهد حديدة الجرى سلسلة سهلة المساغ وقال مقاتل عين يتسلسل عليهم ماؤها في مجالسهم كيف شاؤا وهى على ماروى عن قتادة عين تنبع

من تحت العرش من جنة عدن تتسلسل الى الجنان وفي البحر الظاهر ان هذه العين تسمى سلسبيلا بمعنى توصف بانها سلسلة في الانسياغ سهلة في المذاق ولا يحمل سلسبيل على انه اسم حقيقة لانه اذ ذاك كان ممنوع الصرف للتأنيث والعلمية وقد روى عن طلحة انه قرأه بغير ألف جعله علما لها فان كان علما فوجه قراءة الجمهور بالتنوين المناسبة للفواصل كما قيل في سلاسلا وقواريرا وزعم الزمخشري ان الباء زيدت فيه حتى صارت الكلمة خماسية فان عنى أنها زيدت حقيقة فليس بجيد لان الباء ليست من حروف الزيادة المعهودة وان عنى انها حرف جاء في سنخ الكلمة وليس في سلسل ولا في سلسال صح ويكون مما اتفق معناه وكان مختلفا في المادة انتهى وفي الكشف لايريد الزيادة المصطلحة الا ترى الى قوله حتى صارت خماسية وهو أيضا من الاشتقاق الا كبر فلا تغفل وقال بعض المعربين سلسبيلا أمر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولامته بسؤال السبيل اليها وعزوه الى علي كرم الله تعالى وجهه وهو غير مستقيم بظاهره الا أن يراد ان جملة قول القائل سلسبيلا جعلت اسما للعين كما قيل تأبط شرا وذرى حبا وسميت بذلك لانه لايشرب منها الا من سأل اليها سبيلا بالعمل الصالح وهو مع استقامته في العربية تكلف وابتداع وعزوه الى مثل الامير كرم الله تعالى وجهه أبدع ونص بعضهم على أنه افتراء عليه كرم الله تعالى وجهه وفي شعر ابن مطران الشاشي

سلسبيلا فيها الى راحة النفس ✡ براح كأنها سلسبيل

وفيه الجناس الملفق واستعمله غير واحد من المحدثين ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أى للخدمة ﴿وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ أى دائمون على ماهم فيه من الطراوة والبهاء وقيل مقرطون بخلدة وهي ضرب من القرطة وجاء في حديث أخرجه ابن مردويه عن أنس مرفوعا انهم ألف خادم وفي بعض الآثار أضعاف ذلك ✡ والجود أعظم والمواهب أوسع ✡ ويختلف ذلك قلة وكثرة باختلاف أعمال المخدومين ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا﴾ لحسنهم وصفاء ألوانهم وأشراق وجوههم وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم وانعكاس أشعة بعضهم الى بعض وقيل شبهوا باللؤلؤ الرطب اذا نثر من صدفه لانه أحسن وأكثر ماء وعليه هو من تشبيه المفرد لان الانبثاث غير ملحوظ والخطاب فى رأيتهم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أو لكل واقف عليه وكذا في قوله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ أى هناك يعني في الجنة وهو في موضع النصب على الظرف ورأيت منزل منزلة اللازم فيفيد العموم في المقام الخطابي فالمعنى ان بصرك اينما وقع في الجنة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ عظيم القدر لاتحيط به عبارة وهو يشمل المحسوس والمعقول وقال عبد الله بن عمرو الكلبي عريضا واسعا يبصر أدناهم منزلة في الجنة في ملك مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه وذلك لما يعطى من حدة النظر أو هو من خصائص الجنة وقال مجاهد هو استئذان الملائكة عليهم السلام فلا يدخلون عليهم الا باذن وقال الترمذي وأظنه كما ظن أبو حيان الحكيم لا أبا عيسى المحدث صاحب الجامع هو ملك التكوين والمشيئة اذا أرادوا شيئا كان وقيل هو النظر الى الله عز وجل وقيل غير ذلك وقيل الملك الدائم الذى لازوال له وزعم الفراء ان المعنى واذا رأيت ما ثم رأيت الخ وخرج على انه أراد أن ثم ظرف لمحذوف وقع صلة لموصول محذوف هو مفعول رأيت والتقدير واذا رأيت ما ثم رأيت نعيما الخ فحذف ما كما حذف في قوله تعالى لقد تقطع بينكم أى ما بينكم وتعقبه الزجاج ثم الزمخشري بأنه خطأ لانه لايجوز اسقاط الموصول وترك الصلة وأنت تعلم ان الكوفيين يجيزون ذلك ومنه قوله

فمن يهجو رسول الله منكم ✡ ويمدحه وينصره سواء

أراد ومن يمدحه فحذف الموصول وأبقى صلته وقد يقال ان ذلك انما يرد لو أراد أن الموصول مقدر أما لو أراد المعنى وان الظرف يغني غناء المفعول به فهو كلام صحيح لان الظرف والمرئي كليهما الجنة وقرأ حميد الاعرج ثم بضم

الثاء حرف عطف وجواب اذا على هذا محذوف يقدر بنحو تحير فكرك أو بنحو رأيت عاملا في نعيما ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ قيل عاليهم ظرف بمعنى فوقهم على انه خبر مقدم وثياب مبتدأ مؤخر والجملة حال من الضمير المجرور في عاليهم فهى شرح لحال الابرار المطوف عليهم وقال أبو حيان ان عالى نفسه حال من ذلك الضمير وهو اسم فاعل وثياب مرفوع على الفاعلية به ويحتاج في اثبات كونه ظرفا الى أن يكون منقولا من كلام العرب عاليك ثوب مثلا ومثله فيما ذكر عالية وقيل حال من ضمير لقاهم أو من ضمير جزاهم وقيل من الضمير المستتر في متكئين والكل بعيد وجوز كون الحال من مضاف مقدر قبل نعيما أو قبل ملكا أى رأيت أهل نعيم أو أهل ملك عاليهم الخ وهو تكلف غير محتاج اليه وقيل صاحب الحال الضمير المنصوب في حسبتهم فهى شرح لحال الطائفين ولا يخفى بعده لما فيه من لزوم التفكيك ضرورة أن ضمير سقاهم فيما بعد كالمتعين عوده على الابرار وكونه من التفكيك مع القرينة المعينة وهو مما لابأس به ممنوع واعترض أيضا بأن مضمون الجملة يصير داخلا تحت الحسبان وكيف يكون ذلك وهم لابسون الثياب حقيقة بخلاف كونهم لؤلؤاً فانه على طريق التشبيه المقتضى لقرب شبههم باللؤلؤ أن يحسبوا لؤلؤاً وأجيب بأن الحسبان في حال من الاحوال لا يقتضى دخول الحال تحت الحسبان ورفع خضر على أنه صفة ثياب واستبرق على أنه عطف على ثياب والمراد وثياب استبرق والسندس قال ثعلب مارق من الديباج وقيل مارق من ثياب الحرير والفرق ان الديباج ضرب من الحرير المنسوج يتلون ألوانا وقال الليث هو ضرب من البزيون يتخذ من المرعز وهو معرب بلا خلاف بين أهل اللغة على ما في القاموس وغيره وزعم بعض انه مع كونه معربا أصله سندى بياء النسبة لانه يجلب من السند فابدلت الياء سينا كما قال في سادى سادس وهو كما ترى والاستبرق قيل ماغلظ من ثياب الحرير وقال أبو اسحق الديباج الصفيق الغليظ الحسن وقال ابن دريد ثياب حرير نحو الديباج وعن ابن عبادة هو بردة حمراء وقيل هو المنسوج من الذهب وهو اسم أعجمى معرب عند جمع اصله بالفارسية استبره وفي القاموس معرب استروه وحكى ذلك عن ابن دريد وانه قال انه سريانى وقيل معرب استفره وما في صورة الفاء ليست فاء خالصة وانما هي بين الفاء والباء وقيل عربى وافقت لغة العرب فيه لغة غيرهم واستصوبه الازهرى وكما اختلفوا فيه هل هو معرب أو عربى اختلفوا هل هو نكرة أو علم جنس مبنى أو معرب أو ممنوع من الصرف وهمزته همزة قطع أو وصل والصحيح على ما قال الخفاجي أنه نكرة معرب مصروف مقطوع الهمزة كما يشهد به القراءة المتواترة وسيعلم ان شاء الله تعالى حال ما يخالفها وفي جامع التعريب ان جمعه أبارق وتصغيره أبيرق حذفت السين والتاء في التكسير لانهما زيدتا معا فاجرى مجرى الزيادة الواحدة وفي المسئلة خلاف أيضا مذكور في محله ولم يذكر لون هذا الاستبرق وأشار ناصر الدين الى انه الخضرة لخضر وان توسط بين المعطوف والمعطوف عليه فهو لهما وعلى كل حال هذه الثياب لباس لهم وربما تشعر الآية بأن تحتها ثيابا أخرى وقيل على وجه الحالية من ضمير متكئين ان المراد فوق حجالهم المضروبة عليهم ثياب سندس الخ وحاصله ان حجالهم مكللة بالسندس والاستبرق وقرأ ابن عباس بخلاف عنه والاعرج وابو جعفر وشيبة وابن محيصن ونافع وحمزة عاليهم بسكون الياء وكسر الهاء وهي رواية ابان عن عاصم فهو مرفوع بضمة مقدرة على الياء على أنه مبتدأ وثياب خبره وعند الاخفش فاعل سد مسد الخبر وقيل على انه خبر مقدم وثياب مبتدأ مؤخر وأخبر به عن النكرة لانه نكرة واضافته لفظية وهو في معنى الجماعة كما في سامراً تهجرون على ماصرح به مكي ولا حاجة الى التزامه على رأى الاخفش وقيل هو باق على النصب والفتحة مقدرة على الياء وأنت تعلم

ان مثله شاذ أو ضرورة فلا ينبغي أن يخرج عليه القراءة المتواترة وقرأ ابن مسعود والاعمش وطلحة وزيد بن على عاليّهم بالياء والتاء مضمومة وعن الاعمش أيضا وأبان عن عاصم فتح التاء الفوقية وتخريجهما كتخريج عاليهم بالسكون والنصب وقرأ ابن سيرين ومجاهد في رواية وقتادة وأبو حيوة وابن أبى عبلة والزعفرانى وأبان أيضا عليهم جارا ومجرورا فهو خبر مقدم وثياب مبتدأ مؤخر وقرأت عائشة علتهم بتاء التأنيث فعلا ماضيا فثياب فاعل وقرأ ابن أبى عبلة وأبو حيوة ثياب سندس بتنوين ثياب ورفع سندس على انه وصف لها وهذا كما تقول ثوب حرير تريد من هذا الجنس وقرا العربيان ونافع في رواية واستبرق بالجر عطفا على سندس وقرأ ابن كثير وابو بكر بجر خضر صفة لسندس وهو في معنى الجمع وقد صرحوا بان وصف اسم الجنس الذى يفرق بينه وبين واحده بتاء التأنيث بالجمع جائز فصيح وعليه ينشىء السحاب الثقال والنخل باسقات وقد جاء سندسة في الواحدة كما قاله غير واحد وجوز كونه صفة لثياب وجره للجوار وفيه توافق القراءتين معنى الا انه قليل وقرأ الاعمش وطلحة والحسن وأبو عمرو بخلاف عنهما وحمزة والكسائى خضر واستبرق بجرهما وقرأ ابن محيصن واستبرق بوصل الالف وفتح القاف كما في عامة كتب القراآت ويفهم من الكشاف انه قرأ بالقطع والفتح وان غيره قرأ بما تقدم وهو خلاف المعروف وخرج الفتح على المنع من الصرف للعلمية والعجمة وغلط بأنه نكرة يدخله حرف التعريف فيقال الاستبرق وقيل ان ذاك كذا والوصل مبنى على انه عربى مسمى باستفعل من البريق يقال برق واستبرق كعجب واستعجب فهو في الاصل فعل ماض ثم جعل علما لهذا النوع من الثياب فمنع من الصرف للعلمية ووزن الفعل دون العجمة وتعقب بأن كونه معربا مما لا ينبغي أن ينكر وقيل هو مبنى منقول من جملة فعل وضمير مستتر وحاله لايخفى واختار ابو حيان ان استبرق على قراءة ابن محيصن فعل ماض من البريق كما سمعت وانه باق على ذلك لم ينقل ولم يجعل علما للنوع المعروف من الثياب وفيه ضمير عائد على السندس او على الاخضر الدال عليه خضر كانه لما وصف بالخضرة وهي مما يكون فيها لشدتها دهمة وغبش اخبر أن في ذلك اللون بريقا وحسنا يزيل غبشه فقيل واستبرق اى برق ولمع لمعانا شديدا ثم قال معرضا بمن غلطه كأبى حاتم والزمخشرى وهذا التخريج أولى من تلحين قارىء جليل مشهور بمعرفة العربية وتوهيم ضابط ثقة قد أخذ عن أكابر العلماء انتهى وقيل الجملة عليه معترضة أو حال بتقدير قد أو بدونه ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ ﴾ جمع سوار وهو معروف وذكر الراغب انه معرب دستواره ﴿ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ هي فضة لائقة بتلك الدار والظاهر ان هذا عطف على يطوف عليهم واختلافهما بالمضى والمضارعة لان الحالية مقدمة على الطواف المتجدد ولا ينافي ماهنا قوله تعالى أساور من ذهب لامكان الجمع بتعدد الاساور لكل والمعاقبة بلبس الذهب تارة والفضة أخرى والتبعيض بان يكون أساور بعض ذهبا وبعض فضة لاختلاف الاعمال وقيل هو حال من ضمير عاليهم باضمار قد أو بدونه فان كان الضمير للطائفتين على أن يكون عاليهم حالا من ضمير حسبتهم جاز ان يقال الفضة للخدم والذهب للمخدومين وجوز ان يكون المراد بالاساور الانوار الفائضة على أهل الجنة المتفاوتة لتفاوت الاعمال تفاوت الذهب والفضة والتعبير عنها بأساور الايدى لانه جزاء ماعملته أيديهم ولا يخفى ان هذا مما لايليق بالتفسير وحرى ان يكون من باب الاشارة ثم ان التحلية ان كانت للولدان فلا كلام ويكونون على القول الثانى فى مخلدون مسورين مقرطين وهو من الحسن بمكان وان كانت لاهل الجنة المخدومين فقد استشكل بأنها لا تليق بالرجال وانما تليق بالنساء والولدان وأجيب بأن ذلك مما يختلف باختلاف العادات والطبائع ونشأة الآخرة غير هذه النشأة ومن المشاهد في الدنيا ان بعض ملوكها يتحلون باعضادهم وعلى تيجانهم وعلى صدورهم ببعض أنواع الحلى مما هو

عند بعض الطباع أولى بالنساء والصبيان ولا يرون ذلك بدعا ولا نقصا كل ذلك لمكان الالف والعادة فلا يبعد أن يكون من طباع أهل الجنة في الجنة الميل الى الحلى مطلقا لا سيما وهم جرد مرد أبناء ثلاثين وقيل ان الاساور انما تكون لنساء أهل الجنة والصبيان فقط لكن غلب فى اللفظ جانب التذكير وهو خلاف الظاهر كما لا يخفى ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ هو نوع آخر يفوق النوعين السابقين وهما ما مزج بالكافور وما مزج بالزنجبيل كما يرشد اليه اسناد سقيه الى رب العالمين ووصفه بالطهورية قال أبو قلابة يؤتون بالطعام والشراب فاذا كان آخر ذلك أتوا بالشراب الطهور فيطهر بذلك قلوبهم وبطونهم ويفيض عرقا من جلودهم مثل ريح المسك وعن مقاتل هو ماء عين على باب الجنة من ساق شجرة من شرب منه نزع الله تعالى ما كان في قلبه من غش وغل وحسد وما كان في جوفه من قذر وأذى أى ان كان فالطهور عليهما بمعنى المطهر وقد تقدم في ذلك كلام فتذكر وقال غير واحد أريد انه في غاية الطهارة لانه ليس برجس كخمر الدنيا التى هي فى الشرع رجس لان الدار ليست دار تكليف أو لانه لم يعصر فتمسه الايدى الوضرة وتدوسه الاقدام الدنسة ولم يجعل فى الدنان والاباريق التى لم يعن بتنظيفها أولانه لا يؤل الى النجاسة لانه يرشح عرقا من أبدانهم له ريح كريح المسك وقيل أريد بذلك الشراب الروحانى لا المحسوس وهو عبارة عن التجلى الربانى الذى يسكرهم عما سواه

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا ✿ ونور ولا نار وروح ولا جسم

ولعل كل ما ذكره ابن الفارض في خمريته التى لم يفرغ مثلها في كأس اشارة الى هذا الشراب واياه عنى بقوله

سقونى وقالوا لا تغن ولو سقوا ✿ جبال حنين ماسقونى لغنت

ويحكى انه سئل أبو يزيد عن هذه الآية فقال سقاهم شرابا طهرهم به عن محبة غيره ثم قال ان لله تعالى شرابا ادخره لافاضل عباده يتولى سقيهم اياه فاذا شربوا طاشوا واذا طاشوا طاروا واذا طاروا وصلوا واذا وصلوا اتصلوا فهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر وحمل بعضهم جميع الاشربة على غير المتبادر منها فقال ان الانوار الفائضة من جواهر أكابر الملائكة وعظمائهم عليهم السلام على هذه الارواح مشبهة بالماء العذب الذى يزيل العطش ويقوى البدن وكما ان العيون متفاوتة في الصفاء والكثرة والقوة فكذا ينابيع الانوار العلوية مختلفة فبعضها كافورية على طبع البرد واليبس ويكون صاحب ذلك فى الدنيا في مقام الحزن والبكاء والانقباض وبعضها يكون زنجبيليا على طبع الحر واليبس ويكون صاحبه قليل الالتفات الى السوى قليل المبالات بالاجسام والجسمانيات ثم لا يزال الروح البشرى متنقلا من ينبوع الى ينبوع ومن نور الى نور ولا شك ان الاسباب والمسببات متناهية في ارتقائها الى واجب الوجود الذى هو النور المطلق جل جلاله فاذا وصل الى ذلك المقام وشرب ذلك الشراب انهضمت تلك الاشربة المتقدمة بل فنيت لان نور ما سوى الله يضمحل في مقابلة نور جلال الله سبحانه وكبريائه وذلك آخر سير الصديقين ومنتهى درجاتهم في الارتقاء والكمال ولهذا ختم الله تعالى ذكر ثواب الابرار بقوله جل وعلا وسقاهم ربهم شرابا طهوراً ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذى ذكر من فنون الكرامات الجليلة الشأن ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ بمقابلة أعمالكم الصالحة التى اقتضاها حسن استعدادكم واختياركم والظاهر ان المجيء بالفعل للتحقيق والدوام وجوز أن يكون المراد كان فى علمى وحكمى وكذا في قوله تعالى ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ أى مرضيا مقبولا أو مجازى عليه غير مضيع والكلام على ما روى عن ابن عباس على اضمار القول أى ويقال لهم بعد دخولهم الجنة ومشاهدتهم ما أعد لهم ان هذا الخ والغرض أن يزداد سرورهم فانه يقال للمعاقب هذا بعملك الردىء فيزداد غمه وللمثاب هذا بطاعتك وعملك الحسن فيزداد سروره ويكون ذلك تهنئة له

وجوز أن يكون خطابا من الله تعالى في الدنيا كانه سبحانه بعد ان شرح ثواب أهل الجنة قال ان هذا كان في علمي وحكمي جزاء لكم يامعشر عبادي وكان سعيكم مشكورا أقبل وهو لا يغني عن الاضمار ليرتبط بما قبله وقد ذكر سبحانه من الجزاء ما تهش له الالباب وأعقبه جل وعلا بما يدل على الرضا الذي هو أعلى وأغلى لدى الاحباب

اذا كنت عني يامنى القلب راضيا ❁ أرى كل من في الكون لي يتبسم

وروى من طرق أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قرأ هذه السورة وقد أنزلت عليه وعنده رجل من الحبشة أسود فلما بلغ صفة الجنان زفر زفرة خرجت نفسه فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخرج نفس صاحبكم الشوق الى الجنة ولما ذكر سبحانه أولا حال الانسان وقسمه الى الطائع والعاصي وأمعن جل شأنه فيما أعده للطائع مشيراً الى عظم سعة الرحمة ذكر ما شرف به نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ازالة لوحشته وتقوية لقلبه فقال عز قائلا ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً ﴾ اى أنزلناه مفرقا منجما في نحو ثلاث وعشرين سنة لحكم بالغة مقتضية له لا غيرنا كما يعرب عنه تكرير الضمير مع إن سواء كان المنفصل تأكيدا أو فصلا أو مبتدأ ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بتأخير نصرك على الكفار فان له عاقبة حميدة ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ قلة صبر منك على اذاهم وضجرا من تأخر نصرك ﴿مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ قيل ان أو لاحد الشيئين في جميع مواقعها ويعرض لها معان أخر كالشك والاباحة وغيرها فيكون أصل المعنى هنا ولا تطع منهم أحد النوعين ولما كان أحد الاغلب عليه في غير الاثبات العموم واحتمال غيره احتمال مرجوح صار المعنى على النهى عن اطاعة هذا وهذا ولم يؤت بالواو لاحتمال الكلام عليه النهى عن المجموع ويحصل امتثاله بالانتهاء عن واحد دون الآخر فلا يرد أن لا تطع أحد النوعين يحصل الامتثال به بترك اطاعة واحد مع اطاعة الآخر اذ يقال لمن فعل ذلك انه لم يطع أحدهما ومن هنا قيل ان أو في الاثبات تفيد أحد الامرين وفي النفي تفيد نفي كلا الامرين جميعا ولعل ماذكر في معنى كلام ابن الحاجب حيث قال ان وضع أو لاثبات الحكم لاحد الامرين الا أنه ان حصلت قرينة يفهم معها ان أحد الامرين غير حاجر عن الآخر مثل قولك جالس الحسن أو ابن سيرين سمى اباحة وان حجر فهو لاحد الامرين واستشكل بعضهم وقوعها في النهى كلا تطع منهم آثما أو كفورا اذ لو انتهى عن أحدهما لم يمتثل ومن ثم حملها بعضهم يعني أبا عبيدة على انها بمعنى الواو والاولى ان تبقى على بابها وانما جاء التعميم فيها من وراء ذلك وهو النهى الذي فيه معنى النفي لان المعنى قبل وجود النهى تطيع آثما أو كفورا أي واحدا منهما فاذا جاء النهى ورد على ماكان ثابتا في المعنى فيصير المعنى ولا تطع واحدا منهما فيجيء التعميم فيهما من جهة النهى وهي على بابها فيما ذكر لانه لا يحصل الانتهاء عن أحدهما حتى ينتهي عنهما بخلاف الاثبات فانه قد يفعل أحدهما دون الآخر انتهى وعليه ماقيل ان افادة العموم في النفي والنهى الذي في معناه لما أن نقيض الايجاب الجزئي السلب الكلي وقريب من ذلك قول الزجاج ان أو ههنا أوكد من الواو لانك اذا قلت لا تطع زيدا وعمرا فأطاع أحدهما كان غير عاص فاذا أبدلتها باو فقد دلت على ان كل واحد منهما أهل لان يعصى ويعلم منه النهى عن اطاعتهما معا كما لا يخفى وأفاد جار الله ان أو باقية على حقيقتها وان النهى عن اطاعتهما جميعا انما جاء من دلالة النص وهي المسمى مفهوم الموافقة بقسميه الاولى والمساوى فتأمل والمراد بالآثم والكفور جنسهما وتعليق النهى بذلك مشعر بعلية الوصفين له فلا بد ان يكون النهى عن الاطاعة في الاثم والكفر لا فيما ليس باثم ولا كفر والمراد ولا تطع مرتكب الاثم الداعي لك اليه أو مرتكب الكفر الداعي اليه أي لا تتبع أحداً من الآثم اذا دعاك الى الاثم ومن الكفور اذا دعاك الى الكفر فانه اذا قيل لا تطع

الظالم فهم منه لا تتبعه في الظلم اذا دعاك اليه ومنع هذا الفهم مكابرة فلا يتم الاستدلال بالآية على عدم جواز الاقتداء بالفاسق اذا صلى أماما ثم ان التقسيم باعتبار مايدعوان اليه من الكفر والاثم المقابل له لا باعتبار الذوات حتى يكون بعضهم آثما وبعضهم كفوراً فيقال كيف ذلك وكلهم كفرة والمبالغة في كفور قيل لموافقة الواقع وهذا كقوله تعالى ولا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واعتبار رجوعها الى النهي كاعتبار رجوعها الى النفي على ماقيل في قوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد كما ترى وقيل الآثم المنافق والكفور المشرك المجاهر وقيل الآثم عتبة بن ربيعة والكفور الوليد بن المغيرة لان عتبة كان ركابا للمآثم متعاطيا لانواع الفسوق وكان الوليد غاليا في الكفر شديد الشكيمة في العتو وعن مقاتل انهما قالا له صلى الله تعالى عليه وسلم ارجع عن هذا الامر ونحن نرضيك بالمال والتزويج فنزلت وقيل الكفور أبو جهل والآية نزلت فيه والاولى ماتقدم وفي النهي مع العصمة ارشاد لغير المعصوم الى التضرع الى الله تعالى والرغبة اليه سبحانه في الحفظ عن الوقوع فيما لا ينبغي ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ وداوم على ذكره سبحانه في جميع الاوقات أو دم على صلاة الفجر والظهر والعصر فان الاصيل قد يطلق على مابعد الزوال الى المغرب فينتظمهما ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ أي بعضه ﴿فَاسْجُدْ﴾ فصل ﴿لَهُ﴾ عز وجل على أن السجود مجاز عن الصلاة بذكر الجزء وارادة الكل وحمل ذلك على صلاة المغرب والعشاء وتقديم الظرف للاعتناء والاهتمام لما في صلاة الليل من مزيد كلفة وخلوص ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ وتهجد له تعالى قطعا من الليل طويلا فهو أمر بالتهجد على ما اختاره بعضهم وتنوين ليلا للتبعيض وأصل التسبيح التنزيه ويطلق على مطلق العبادة القولية والفعلية وعن ابن زيد وغيره أن ذلك كان فرضا ونسخ فلا فرض اليوم الا الخمس وقال قوم هو محكم في شأنه عليه الصلاة والسلام وقال آخرون هو كذلك مطلقا على وجه الندب وفي تاخير الظرف قيل دلالة على أنه ليس بفرض كالذي قبله وكذا في التعبير عنه بالتسبيح وفيه نظر وقال الطيبي الاقرب من حيث النظم انه تعالى لما نهى حبيبه صلى الله تعالى عليه وسلم عن اطاعة الآثم والكفور وحثه على الصبر على اذاهم وافراطهم في العداوة وأراد سبحانه أن يرشده الى متاركتهم عقب ذلك بالامر باستغراق أوقاته بالعبادة ليلا ونهارا بالصلوات كلها من غير اختصاص وبالتسبيح بما يطيق على منوال قوله تعالى ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين انتهى وهو حسن ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ الكفرة ﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ وينهمكون في لذاتها الفانية ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ﴾ أي أمامهم ﴿يَوْماً ثَقِيلاً﴾ هو يوم القيامة وكونه أمامهم ظاهر أو يذرون وراء ظهورهم يوما ثقيلا لا يعبؤن به فالظرف قيل على الاول حال من يوما وعلى هذا ظرف يذرون ولو جعل على وتيرة واحدة في التعلق صح أيضا ووصف اليوم بالثقيل لتشبيه شدته وهوله بثقل شيء فادح باهظ لحامله بطريق الاستعارة والجملة كالتعليل لما أمر به ونهى عنه كأنه قيل لا تطعهم واشتغل بالاهم من العبادة لان هؤلاء تركوا الآخرة للدنيا فاترك أنت الدنيا واهلها للآخرة وقيل ان هذا يفيد ترهيب محب العاجل وترغيب محب الآجل والاول علة للنهي عن اطاعة الآثم والكفور والثاني علة للامر بالعبادة ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ﴾ لا غيرنا ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي أحكمنا ربط مفاصلهم بالاعصاب والعروق والاسر في الاصل الشد والربط وأطلق على ما يشد به ويربط كما هنا وارادة الاعصاب والعروق لشبهها بالحبال المربوط بها ووجه الشبه ظاهر ومن هنا قد يقول العارف من كان أسره من ذاته وسجنه دنياه في حياته فليبك مدة عمره وليتاسف على وجوده باسره والمراد شدة الخلق وكونه موثقا

حسنا ومنه فرس ماسور الخلق اذا كان موثقه حسنا وعن مجاهد الاسر الشرج وفسر بمجرى الفضلة وشد ذلك جعله بحيث اذا خرج الاذى انقبض ولا يخفى أن هذا داخل فى شدة الخلق وكونه موثقا حسنا ﴿وإذا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ﴾ أى أهلكناهم وبدلنا أمثالهم في شدة الخلق ﴿تَبْدِيلاً﴾ بديعا الاريب فيه يعنى البعث والنشاة الاخرى فالتبديل في الصفات لان المعاد هو المبتدأ ولكون الامر محققا كائنا جيء باذا وذكر المشيئة لابهام وقته ومثله شائع كما يقول العظيم لمن يسأله الانعام اذا شئت أحسن اليك ويجوز أن يكون المعنى واذا شئنا أهلكناهم وبدلنا غيرهم ممن يطيع فالتبديل في الذوات واذا التحقق قدرته تعالى عليه وتحقق ما يقتضيه من كفرهم المقتضى لاستئصالهم جعل ذلك المقدور المهدد به كالمحقق وعبر عنه بما يعبر به عنه ولعله الذى أراده الزمخشرى بما نقل عنه من قوله انما جاز ذلك لانه وعيد جيء به على سبيل المبالغة كان له وقتا معينا ولا يعترض عليه بقوله تعالى وان تتولوا يستبدل قوما غيركم لان النكات لا يلزم اطرادها فافهم والوجه الاول أوفق بسياق النظم الجليل ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ اشارة الى السورة أو الآيات القرآنية ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ أى فمن شاء ان يتخذ اليه تعالى سبيلا أى وسيلة توصله الى ثوابه اتخذه أى تقرب اليه بالطاعة فهو توصل ايضا السبيل للمقاصد ﴿وَمَا تَشَاؤُنَ﴾ أى شيئا أو اتخاذ السبيل ﴿إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أى الا وقت مشيئة الله تعالى لمشيئتكم وقال الزمخشرى أى وما تشاؤن الطاعة الا ان يشاء الله تعالى قسركم عليها وهو تحريف للآية بلا دليل ويلزمه على ما فى الانتصاف ان مشيئة العبد لا يوجد الا اذا انتفت وهو عن مذهب الاعتزال بمعزل وابعد منزل والظاهر ما قررنا لان المفعول المحذوف هو المذكور أولا كما تقول لو شئت لقتلت زيدا اى لو شئت القتل لا لو شئت زيدا أولا يمكن للمعتزلة ان ينازعوا أهل الحق في ذلك لان المشيئة ليست من الافعال الاختيارية والا لتسلسلت بل الفعل المقرون بها منها فدعوى استقلال العبد مكابرة وكذلك دعوى الجبر المطلق مهاترة والامر بين الامرين لاثبات المشيئتين وحاصله على ما حققه الكورانى أن العبد مختار فى أفعاله وغير مختار في اختياره والثواب والعقاب لحسن الاستعداد النفس الامرى وسوئه فكل يعمل على شاكلته وسبحان من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وفي التفسير الكبير هذه الآية من الآيات التى تلاطمت فيها أمواج القدر والجبر فالقدرى يتمسك بالجملة الاولى ويقول ان مفادها كون مشيئة العبد مستلزمة للفعل وهو مذهبي والجبرى يتمسك بضم الجملة الثانية ويقول ان مفادها ان مشيئة الله تعالى مستلزمة لمشيئة العبد فيتحصل من الجملتين ان مشيئة الله تعالى مستلزمة لمشيئة العبد وان مشيئة العبد مستلزمة لفعل العبد كما تؤذن به الشرطية فاذن مشيئة الله تعالى مستلزمة لفعل العبد لان مستلزم المستلزم مستلزم وذلك هو الجبر وهو صريح مذهبي وتعقب بان هذا ليس بالجبر المحض المسلوب معه الاختيار بالكلية بل يرجع أيضا الى أمر بين امرين وقدر بعض الاجلة مفعول يشاء الاتخاذ والتحصيل ردا للكلام على الصدر فقال ان قوله سبحانه وما تشاؤن الخ تحقيق للحق ببيان أن مجرد مشيئتهم غير كافية في اتخاذ السبيل كما هو المفهوم من ظاهر الشرطية أى وما تشاؤن اتخاذ السبيل ولا تقدرون على تحصيله في وقت من الاوقات الا وقت مشيئته تعالى اتخاذه وتحصيله لكم اذ لا دخل لمشيئة العبد الا في الكسب وانما التأثير والخلق لمشيئة الله عز وجل وفيه نوع مخالفة للظاهر كما لا يخفى نعم قيل أن ظاهر الشرطية أن مشيئة العبد مطلقا مستلزمة للفعل فيلزم أنه متى شاء فعلا فعله مع أن الواقع خلافه فلا بد مما قاله هذا البعض وجعل الجملة الثانية تحقيقا للحق وأجيب بانها للتحقيق على وجه آخر وذلك أن الاولى أفهمت الاستلزام والثانية بينت أن هذه المشيئة المستلزمة لا تتحقق الا وقت مشيئة الله تعالى اياها

فكأنه قيل وما تشاؤن مشيئة تستلزم الفعل الا وقت أن يشاء الله تعالى مشيئتكم تلك فتأمل وأنت تعلم أن
هذه المسألة من محار الافهام ومزال أقدام أقوام بعد أقوام وأقوى شبه الجبرية أنه قد تقرر أن الشيء مالم يجب
لم يوجد فان وجب صدور الفعل فلا اختيار والا فلا صدور وبعبارة أخرى أن جميع ما يتوقف عليه
الفعل اذا تحقق فأما أن يلزم الفعل فيلزم الاضطرار أولا فيلزم جواز تخلف المعلول عن علته التامة بل
مع الصدور الترجيح بلا مرجح فقد قيل انها نحو شبهة ابن كمونة في التوحيد يصعب التفصى عنها وللفقير
العاجز جبر الله تعالى فقره ويسر أمره عزم على تأليف رسالة ان شاء الله تعالى في ذلك سالكا فيها
بتوفيقه سبحانه أحسن المسالك وان كان الكوراني قدس سره لم يدع فيها مقالا وأوشك أن يدع كل من
جاء بعد فيها بشيء عليه عيالا والله تعالى الموفق وقرأ العربيان وابن كثير وما يشاؤن بياء الغيبة وقرأ ابن
مسعود الا ما يشاء الله وما فيه مصدرية كأن في قراءة الجماعة وقد أشرنا الى أن المصدر في محل نصب على
الظرفية بتقدير المضاف الساد هو مسده وهو ما اختاره غير واحد وتعقبه أبو حيان بأنهم نصوا على أنه لا
يقوم مقام الظرف الا المصدر المصرح فلا يجوز أجيئك أن يصيح الديك أو ما يصيح الديك وانما يجوز أجيئك
صياح الديك وكأنه لهذا قيل ان أن يشاء بتقدير حرف الجر والاستثناء من أعم الاسباب أي وما تشاؤن بسبب من
الاسباب الا بأن يشاء الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ مبالغا في العلم فيعلم مشيئات العباد المتعلقة بالافعال التي سألوها
بألسنة استعداداتهم ﴿ حَكِيمًا ﴾ مبالغا في الحكمة فيفيض على كل ماهو الاوفق باستعداده وما هو
عليه في نفس الامر من المشيئة أو انه تعالى مبالغ في العلم والحكمة فيعلم ما يستأهله كل أحد من الطاعة
وخلافها فلا يشاء لهم الا مايستدعيه علمه سبحانه وتقتضيه حكمته عز وجل وقيل عليما أي يعلم مايتعلق
به مشيئة العباد من الاعمال حكيما لا يشاء الا على وفق حكمته وهو أن يشاء العبد فيشاء الرب سبحانه
وتعالى لا العكس ليتأتى التكليف من غير انفراد لاحد المشيئتين عن الاخرى وفيه بحث وقوله تعالى
﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ الخ بيان لما تضمنته الجملة قيل أي يدخل سبحانه في رحمته من يشاء
أن يدخله فيها وهو الذي علم فيه الخير حيث يوفقه لما يؤدي الى دخول الجنة من الايمان والطاعة ﴿ وَالظَّالِمِينَ ﴾
أي لانفسهم وهم الذين علم فيهم الشر ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ متناهيا في الايلام ونصب الظالمين باضمار
فعل يفسره أعد الخ وقدر يعذب وقد يقدر أو عد أو كافأ أو شبه ذلك ولم يقدر أعد لانه لا يتعدى باللام
وقرأ ابن الزبير وأبان بن عثمان وابن أبي عبلة والظالمون على الابتداء وقراءة الجمهور أحسن وان أوجبت تقديرا
للطباق فيها وذهابه في هذه اذ الجملة عليها اسمية والاولى فعلية ولا يقال زيادة التأكيد في طرف الوعيد
مطلوبة لانا نقول الامر بالعكس لو حقق لسبق الرحمة الغضب وقرأ عبد الله وللظالمين بلام الجر
فقيل متعلق بما بعد على سبيل التوكيد وقيل هو بتقدير أعد للظالمين أعد لهم والجمهور على الاول
ثم ان هذه السورة وان تضمنت من سعة رحمة الله عز وجل ماتضمنت الا أنها أشارت من عظيم
جلاله سبحانه وتعالى الى ما أشارت أخرج احمد والترمذي وحسنه وابن ماجه والضياء في المختارة والحاكم
وصححه وغيرهم عن أبي ذر قال قرأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هل أتى على الانسان حتى
ختمها ثم قال انى أرى مالا ترون واسمع مالا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط مافيها موضع أربع
أصابع الا وملك واضع جبهته ساجدا لله تعالى والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وماتلذذتم بالنساء
على الفرش ولخرجتم الى الصعدات تجأرون الى الله عز وجل وهذا كالظاهر فيما قلنا نسأل الله تعالى أن يجعلنا
من الابرار والمقربين الاخيار فيرزقنا جنة وحريرا ويجعل سعينا لديه مشكورا بحرمة النبي صلى الله تعالى
عليه وسلم واهل بيته المطهرين من الرجس تطهيرا

سـورة الإنسـان

وهي إحدى وثلاثون آية

مَكِّيَّةٌ في قول ٱبن عباس ومقاتل والكلبي. وقال الجمهور: مدنية. وقيل: فيها مكيّ، من قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾[1] إلى آخر السورة، وما تقدّمه مدنيّ.

وذكر ٱبن وهب قال: وحدّثنا ٱبن زيد قال: إن رسول الله ﷺ ليقرأ ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ وقد أنزلت عليه وعنده رجل أسود كان يسأل النبي ﷺ، فقال له عمر بن الخطاب؛ لا تُثْقل على النبي ﷺ، قال: «دَعْه يابن الخطاب» قال: فنزلت عليه هذه السورة وهو عنده، فلما قرأها عليه وبلغ صفة الجِنان زَفَر زَفْرة فخرجت نَفْسه. فقال رسول الله ﷺ: «أَخْرَج نفس صاحِبكم ـ أو أخيكم ـ الشَّوْقُ إلى الجنة» وروي عن ٱبن عمر بخلاف هذا اللفظ، وسيأتي. وقال القُشَيريّ: إن هذه السورة نزلت في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. والمقصود من السورة عام. وهكذا القول في كل ما يقال إنه نزل بسبب كذا وكذا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾.

[٢] ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾.

[٣] ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى ٱلإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ «هَلْ»: بمعنى[2] قد؛ قاله الكسائي والفراء وأبو عبيدة. وقد حكي عن سيبويه «هَلْ» بمعنى قد.

---

(١) الآية: ٢٣. (٢) في ح: «تقديره».

قال الفراء: هل تكون جَحْداً، وتكون خبراً، فهذا من الخبر؛ لأنك تقول: هل أعطيتك؟ تُقَرِّره بأنك أعطيته. والجحد أن تقول: هل يقدر أحد على مثل هذا؟ وقيل: هي بمنزلة الاستفهام، والمعنى: أتى. والإنسان هنا آدم عليه السلام؛ قاله قتادة والثَّوريّ وعِكرمة والسّديّ. وروي عن ٱبن عباس. ﴿حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ قال ٱبن عباس في رواية أبي صالح: أربعون سنة مرّت به، قبل أن ينفخ فيه الروح، وهو ملقى بين مكة والطائف. وعن ٱبن عباس أيضاً في رواية الضحاك أنه خلق من طين، فأقام أربعين سنة، ثم من حَمَإٍ مسنون أربعين سنة، ثم من صَلْصال أربعين سنة، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة. وزاد ٱبن مسعود فقال: أقام وهو من تراب أربعين سنة، فتم خلقه بعد مائة وستين سنة، ثم نفخ فيه الروح. وقيل: الحين المذكور ها هنا: لا يُعْرف مقدارُه؛ عن ٱبن عباس أيضاً، حكاه الماورديّ. ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ قال الضحاك عن ٱبن عباس: لا في السماء ولا في الأرض. وقيل: أي كان جسداً مصوّراً تراباً وطيناً، لا يُذكَر ولا يُعرفَ، ولا يُدرَى ما ٱسمه ولا ما يراد به ثم نُفِخ فيه الرُّوح، فصار مذكوراً؛ قاله الفراء وقطرب وثعلب. وقال يحيى بن سلاّم: لم يكن شيئاً مذكوراً في الخَلْق وإن كان عند الله شيئاً مذكوراً. وقيل: ليس هذا الذِّكر بمعنى الإخبار، فإن إخبار الربّ عن الكائنات قديم، بل هذا الذِّكر بمعنى الخطر والشرف والقدر؛ تقول: فلان مذكور أي له شرف وقدر. وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي قد أتى على الإنسان حين لم يكن له قَدْر عند الخليقة. ثم لما عَرَّف الله الملائكة أنه جعل آدم خليفة، وحمَّله الأمانة التي عجز عنها السموات والأرض والجبال، ظهر فضله على الكل، فصار مذكوراً. قال القُشيريّ: وعلى الجملة ما كان مذكوراً للخلق، وإن كان مذكوراً لله. وحكى محمد بن الجهم عن الفراء: «لَمْ يَكُنْ شَيْئاً» قال: كان شيئاً ولم يكن مذكوراً. وقال قوم: النفي يرجع إلى الشيء؛ أي قد مضى مُدَد من الدهر وآدم لم يكن شيئاً يذكر في الخليقة؛ لأنه آخر ما خلقه من أصناف الخليقة، والمعدوم ليس بشيء حتى يأتي عليه حين. والمعنى: قد مضت عليه أزمنة وما كان آدم شيئاً ولا مخلوقاً ولا مذكوراً لأحد من الخليقة. وهذا معنى قول قتادة ومقاتل: قال قتادة: إنما خلق الإنسان حديثاً ما نعلم من خليقة الله جل ثناؤه خليقة

كانت بعد الإنسان. وقال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير، وتقديره: هل أتى حين من الدهر لم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً؛ لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله، ولم يخلق بعده حيواناً. وقد قيل: «الإنسان» في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى ٱلإِنسَانِ حِينٌ﴾ عُنِيَ به الجنس من ذرّية آدم، وأن الحين تسعة أشهر، مدّة حمل الإنسان في بطن أمه ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾: إذ كان علقة و مضغة؛ لأنه في هذه الحالة جماد لا خطر له. وقال أبو بكر رضي الله عنه لما قرأ هذه الآية: ليتها تَمَّت فلا نُبْتَلى. أي ليت المدّة التي أتت على آدم لم تكن شيئاً مَذْكوراً تَمَّت على ذلك، فلا يلد ولا يُبْتَلى أولادُه. وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقرأ ﴿هَلْ أَتَى عَلَى ٱلإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ فقال ليتها تَمَّت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلإِنسَانَ﴾ أي ٱبن آدم من غير خلاف ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي من ماء يقطُر وهو المنيّ، وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة؛ كقول عبد الله بن رواحة يعاتب نفسه:

مـالـي أَراكِ تكْـرهِيـنَ الْجَنَّـهْ ... هل أنتِ إلاَّ نُطْفَةٌ في شَنَّهْ[1]

وجمعها: نَطف ونِطَاف. ﴿أَمْشَاجٍ﴾: أخلاط. واحدها: مِشْج ومَشِيج، مثل خِدْن وخَدِين؛ قال: رؤبة:

يَطْـرَحْـن كُـلَّ مُعْجَـلٍ نَشَّـاجِ ... لَمْ يُكْسَ جِلْداً في دَمٍ أَمْشَاجِ

ويقال: مَشَجتُ هذا بهذا أي خلطته، فهو مَمْشوج ومَشِيج؛ مثل مَخْلوط وخَلِيط. وقال المبرّد: واحد الأمشاج: مشيج؛ يقال: مشج يمشِج: إذا خلط، وهو هنا ٱختلاط النطفة بالدم؛ قال الشَّمَّاخ:

طَـوَتْ أَحْشَـاء مُـرْتِجَـةٍ لِـوَقْـتٍ ... علـى مَشَـج سُـلالَتُـهُ مَهِيـنُ

وقال الفراء: أمشاج: أخلاط ماء الرجل وماء المرأة، والدم والعَلَقة. ويقال للشيء من هذا إذا خُلط: مَشِيج كقولك خَلِيط، ومَمْشوج كقولك مَخلُوط. وروي عن ٱبن عباس رضي الله عنه

(١) الشنة: القربة.

قال: الأمشاج: الحمرة في البياض، والبياض في الحمرة؛ وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة؛ قال الهُذَليّ[١]:

كَـأَنَّ الـرِّيـشَ والْفُـوقَيْـنِ مِنْـهُ خِلاَفَ النَّصْلِ سِيطَ به مَشِيجُ

وعن[٢] ٱبن عباس أيضاً قال: يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر رقيق فيخلق منهما الولد، فما كان من عصب وعظم وقوّة فهو من ماء الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر فهو من ماء المرأة. وقد روي هذا مرفوعاً؛ ذكره البزار. وروي عن ٱبن مسعود: أمشاجها عروق المضغة. وعنه: ماء الرجل وماء المرأة وهما لونان. وقال مجاهد؛ نطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وصفراء. وقال ٱبن عباس: خلق من ألوان؛ خلق من تراب، ثم من ماء الفرج والرحم، وهي نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظم ثم لحم. ونحوه قال قتادة: هي أطوار الخلق؛ طور وطور علقة وطور مضغة عظام ثم يكسو العظام لحماً؛ كما قال في سورة «المؤمنون» ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ الآية. وقال ٱبن السِّكّيت: الأمشاج الأخلاط؛ لأنها ممتزجة من أنواع فخلق الإنسان منها ذا طبائع مختلفة. وقال أهل المعاني: الأمشاج ما جمع وهو في معنى الواحد؛ لأنه نعت للنطفة؛ كما يقال: بُرْمَةٌ أَعشَار وثوبٌ أخلاقٌ. وروي عن أبي أيوب الأنصاريّ: قال جاء حبر من اليهود إلى النبي ﷺ فقال: أخبرني عن ماء الرجل وماء المرأة؟ فقال: «ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق فإذا عَلاَ ماء المرأة آنَثَتْ وإذا عَلاَ ماءُ الرجل أَذْكَرَتْ» فقال الحبر: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. وقد مضى هذا القول مستوفًى في سورة «البقرة». ﴿نَبْتَلِيهِ﴾ أي نختبره. وقيل: نقدر فيه الابتلاء وهو الاختبار. وفيما يختبر به وجهان: **أحدهما** ـ

---

(١) هو عمرو بن الداخل الهذلي. وفي («اللسان»: مشج) زهير بن حرام الهذلي. سيط به: أي خرج قذذ من الريش مختلط من الدم والماء.

(٢) وفي حاشية الجمل نقلاً عن القرطبي ما يأتي:

والمعنى: «من نطفة قد أمتزج فيها الماءان وكل منهما مختلف الأجزاء متباين الأوصاف في الرقة والثخن والقوام، والخواص تجتمع من الأخلاط وهي العناصر الأربعة، ماء الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة رقيق أصفر، فأيهما علا كان الشبه له».

نختبره بالخير والشر؛ قاله الكلبي. **الثاني** - نختبر شكره في السَّراء وصبره في الضَّرَّاء؛ قاله الحسن. وقيل «نَبْتَلِيهِ» نُكلِّفه. وفيه أيضاً وجهان: **أحدهما** - بالعمل بعد الخلق؛ قاله مقاتل. **الثاني** - بالدِّين ليكون مأموراً بالطاعة ومنهيًّا عن المعاصي. وروي عن ٱبن عباس: «نَبْتَلِيهِ»: نصرفه خلقاً بعد خلق؛ لنبتليه بالخير والشر. وحكى محمد بن الجهم عن الفراء قال: المعنى والله أعلم ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ لنبتليه، وهي مُقدَّمة معناها التأخير.

قلت: لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخِلْقة. وقيل: ﴿جَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾: يعني جعلنا له سمعاً يسمع به الهدى، وبصراً يبصر به الهدى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي بيّنا له وعَرَّفناه طريق الهدى والضلال، والخير والشرّ ببعث الرسل، فآمن أو كفر؛ كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾. وقال مجاهد: أي بيّنا له السبيل إلى الشَّقاء والسَّعادة. وقال الضحاك وأبو صالح والسّديّ: السبيل هنا خروجه من الرحم. وقيل: منافعه ومضارّه التي يهتدى إليها بطبعه وكمال عقله. ﴿إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ أي أيهما فعل فقد بيّنا له. قال الكوفيون: «إن» ها هنا تكون جزاء و «ما» زائدة أي بيّنا له الطريق إن شَكَر أو كَفَر. وٱختاره الفراء ولم يجزْه البصريون؛ إذ لا تدخل «إنْ» للجزاء على الأسماء إلا أن يضمر بعدها فعل. وقيل: أي هديناه الرشد، أي بيّنا له سبيل التوحيد بنصب الأدلة عليه؛ ثم إن خلقنا له الهداية ٱهتدى وآمن، وإن خذلناه كَفَر. وهو كما تقول؛ قد نصحت لك، إن شئت فاقبل، وإن شئت فٱترك؛ أي فإن شئت، فتحذف الفاء. وكذا «إِمَّا شَاكِراً» والله أعلم. ويقال: هديته السبيل وللسبيل وإلى السبيل. وقد تقدّم في «الفاتحة»[1] وغيرها. وجمع بين الشاكر والكفور، ولم يجمع بين الشكور والكفور مع ٱجتماعهما في معنى المبالغة؛ نفياً للمبالغة في الشكر وإثباتاً لها في الكفر؛ لأن شكر الله تعالى لا يُؤدَّى، فٱنتفت عنه المبالغة، ولم تنتف عن الكفر المبالغة، فقَلَّ شكره، لكثرة النِّعم عليه وكَثرة[2] كفره وإن قَلّ مع الإحسان إليه. حكاه الماورديّ

(١) راجع ١/١٤٧ و ١٦٠. (٢) في أ، ح، و: «وكثرة كفره».

[٤] ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً﴾ بين حال الفريقين، وأنه تَعبَّد العقلاء وكَلَّفهم ومَكَّنهم مما أمرهم، فمن كَفَر فله العقاب، ومن وَحَّد وشكر فله الثواب. والسلاسِل: القيود في جهنم طول كل سلسلة سبعون ذراعاً كما مضى في «الحاقة»[1]. وقرأ نافع والكسائيّ وأبو بكر عن عاصم وهشام عن ٱبن عامر «سَلاَسِلاً» منوّناً. الباقون بغير تنوين. ووقف قُنْبُل وٱبن كثير وحمزة بغير ألف. الباقون بالألف. فأما «قوارِير» الأوّل فنوّنه نافع وٱبن كثير والكسائيّ وأبو بكر عن عاصم، ولم ينوّن الباقون. ووقف فيه يعقوب وحمزة بغير ألف. والباقون بالألف. وأما «قَوَارِير» الثانية فنوّنه أيضاً نافع والكسائيّ وأبو بكر، ولم ينوّن الباقون. فمن نوّن قرأها بالألف، ومن لم ينوّن أسقط منها الألف، وٱختار أبو عُبيد التنوين في الثلاثة، والوقف بالألف ٱتباعاً لخط المصحف؛ قال: رأيت في مصحف عثمان «سَلاَسِلاً» بالألف و «قَوَارِيراً» الأوّل بالألف، وكان الثاني مكتوباً بالألف فَحُكَّت فرأيت أثرها هناك بيّناً. فمن صرف فله أربع حجج: أحدها ـ أن الجموع أشبهت الآحاد فجمعت جمع الآحاد، فجعلت في حكم الآحاد فصرفت. **الثانية ـ** أن الأخفش حكى عن العرب صرف جميع ما لا ينصرف إلا أَفْعَل منك، وكذا قال الكسائيّ والفراء: هو على لغة من يُجرِ الأسماء كلها إلا قولهم هو أظرف منك فإنهم لا يُجْرونه؛ وأنشد ٱبن الأنباري في ذلك قول عمرو بن كُلثوم:

كَأَنَّ سُيوفَنَا فِينا وفِيهِمْ ... مَخَارِيقٌ بِأَيْدِي لاَعِبِينَا

وقال لَبِيد:

وَجَزُورِ أَيْسَارٍ دَعوتُ لِحَتفِها ... بِمَغَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أَجْسَامُهَا

وقال لَبِيد أيضاً:

فَضلاً وذو كَرمٍ يُعِينُ على النَّدَى ... سَمْحٌ كَسُوبُ رَغَائِبٍ غَنَّامُهَا

(١) راجع ١٨/ ٢٧٢.

فصرف مَخَاريق ومَغَالق ورَغَائب، وسبيلها ألا تُصرَف. **والحجة الثالثة** ـ أن يقول نوّنت قوارِير الأوّل لأنه رأس آية، ورءوس الآي جاءت بالنون، كقوله جلّ وعزّ: ﴿مَذْكُوراً * سَمِيعاً بَصِيراً﴾ فنوّنا الأوّل ليوقف بين رءوس الآي، ونوّنا الثاني على الجوار للأوّل. **والحجة الرابعة** ـ أتباع المصاحف، وذلك أنهما جميعاً في مصاحف مكة والمدينة والكوفة بالألف. وقد أحتج من لم يصرفهنّ بأن قال: إن كل جمع بعد الألف منه ثلاثة أحرف أو حرفان أو حرف مشدّد لم يُصرَف في معرفة ولا نكرة؛ فالذي بعد الألف منه ثلاثة أحرف قولك: قناديل ودنانير ومناديل، والذي بعد الألف منه حرفان قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ﴾ لأن بعد الألف منه حرفين، وكذلك قوله: ﴿وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ والذي بعد الألف منه حرف مُشَدّد شَوَابّ ودَوَابّ. وقال خلف: سمعت يحيى بن آدم يحدّث عن أبن إدريس قال: في المصاحف الأوّل الحرف الأوّل بالألف والثاني بغير ألف؛ فهذا حجة لمذهب حمزة. وقال خلف: رأيت في مصحف ينسب إلى قراءة أبن مسعود الأول بالألف والثاني بغير ألف. وأما أَفْعَل مِنْك فلا يقول أحد من العرب في شعره ولا في غيره هو أفعل منك منوّناً؛ لأن مِن تقوم مقام الإضافة فلا يجمع بين تنوين وإضافة في حرف؛ لأنهما دليلان من دلائل الأسماء ولا يجمع بين دليلين؛ قاله الفراء وغيره.

قوله تعالى: ﴿وَأَغْلَالاً﴾ جمع غُلّ تُغلّ بها أيديهم إلى أعناقهم. وعن جُبَير بن نُفَير عن أبي الدرداء كان يقول: أرفعوا هذه الأيدي إلى الله جلّ ثناؤه قبل أن تُغلّ بالأغلال. قال الحسن: إن الأغلال لم تجعل في أعناق أهل النار؛ لأنهم أعجزوا الربّ سبحانه ولكن إذلالاً. ﴿وَسَعِيراً﴾ تقدّم القول فيه.

[٥] ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾.

[٦] ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ الأبرار: أهل الصدق واحدهم بَرٌّ، وهو من ٱمتثل أمر الله تعالى. وقيل: البرّ الموحِّد والأبرار جمع بارّ مثل شاهد وأشهاد، وقيل: هو جمع بَرّ مثل نَهْر وأنهار؛ وفي الصحاح: وجمع البر الأبرار، وجمع البار البَرَرة، وفلان يَبَرُّ خالقَه ويَتَبَرَّره أي يُطِيعه، والأم بَرَّةٌ بولدها. وروى ٱبن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «إنما سمّاهم الله جل ثناؤه الأبرار لأنهم بَرُّوا الآباء والأبناء، كما أن لوالدك عليك حقًّا كذلك لولدك عليك حقًّا». وقال الحسن: البَرّ الذي لا يؤذي الذَّرّ. وقال قتادة: الأبرار الذين يؤدّون حقّ الله ويوفون بالنَّذر. وفي الحديث: «الأبرار الذين لا يؤذون أحداً». ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ أي من إناء فيه الشراب. قال ٱبن عباس: يريد الخمر. والكأس في اللغة الإناء فيه الشراب: وإذا لم يكن فيه شراب لم يسمّ كأساً. قال عمرو بن كُلْثوم:

صَبنْتِ[1] الكأسَ عنَّا أمَّ عمرٍو وكـان الكَـأْسُ مَجْـرَاهـا الْيَمِينَـا

وقال الأصمعيّ: يقال صَبَنْتَ عنّا الهديةَ أو ما كان من معروف تَصبِنُ صَبْنا: بمعنى كَفَفْتَ؛ قاله الجوهري. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي شَوْبها[2] وخلطها؛ قال حسّان:

كَـأَن[3] سَبِيئَـةً مِـن بيْـتِ رَأسٍ يكـونُ مِـزَاجَهـا عَسـلٌ ومـاءُ

ومنه مِزاج البدن وهو ما يمازجه من الصفراء والسوداء والحرارة والبرودة. ﴿ كَافُوراً ﴾ قال ٱبن عباس: هو ٱسم عين ماء في الجنة، يقال له عين الكافور. أي يمازجه ماء هذه العين التي تسمّى كافوراً. وقال سعيد عن قتادة: تُمزَج لهم بالكافور وتُختَمُ بالمسك . وقاله مجاهد . وقال عِكرمة : مِزَاجها طعمها. وقيل: إنما الكافور في ريحها لا في طعمها . وقيل : أراد كالكافور في بياضه وطيب رائحته وبَرْده ؛ لأن الكافور لا يشرب ؛ كقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَاراً ﴾ أي كنارٍ . وقال ٱبن كَيْسان : طُيِّب بالمسك والكافور والزنجبيل . وقال

---

(١) الرواية المشهورة في المعلقات صددت الكأس. (٢) في أ، ح: «شرابها».

(٣) السبيئة: الخمر. وسميت بذلك لأنها تسبأ أي تشترى لتشرب؛ وفي: «كأن خبيئة»، وهي المصونة المضنون بها لنفاستها. وبيت رأس: موضع بالأردن مشهور بالخمر.

مقاتل: ليس بكافور الدنيا. ولكن سمَّى الله ما عنده بما عندكم حتى تهتدي لها القلوب. وقوله: «كَانَ مِزَاجُهَا» «كَانَ» زائدة أي من كأس مِزَاجُها كافورٌ. ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ قال الفراء: إن الكافور اسم لعين ماء في الجنة؛ فـ «عَيْناً» بدل من كافور على هذا. وقيل: بدل من كأس على الموضع. وقيل: هي حال من المضمر في «مِزاجها». وقيل: نصب على المدح؛ كما يُذكَر الرّجلُ فتقول: العاقلَ اللبيبَ؛ أي ذكرتم العاقلَ اللبيبَ فهو نصب بإضمار أعني. وقيل يشربون عيناً. وقال الزجاج: المعنى من عين. ويقال؛ كافور وقافور. والكافور أيضاً: وعاء طلع النخل وكذلك الكُفُرَّى؛ قاله الأصمعيّ.

وأما قول الراعي:

تَكْسُو الْمَفَارِقَ واللَّبَّاتِ ذَا أَرَجٍ ... مِن قُصْبِ مُعْتَلِفِ الكافورِ دَرَّاجِ

فإنّ الظبي الذي يكون منه المسك إنما يَرْعى سُنْبُل الطِّيب فجعله كافوراً. ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ قال الفراء: يشرب بها ويشربها سواء في المعنى، وكأنّ يشرب بها يَرْوَى بها ويَنْقع؛ وأنشد:

شَرِبْنَ بِماءِ البحرِ ثم تَرَفَّعتْ ... مَتَى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نَئيج[1]

قال: ومثله فلان يتكلم بكلام حسن، ويتكلم كلاماً حسناً. وقيل: المعنى يشربها والباء زائدة . وقيل: الباء بدل «مِن» تقديره يشرب منها؛ قاله القتبيّ. ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾ فيقال: إن الرجل منهم ليمشي في بيوتاته ويصعد إلى قصوره، وبيده قضيب يشير به إلى الماء فيجري معه حيثما دار في منازله على مستوى الأرض في غير أخدود، ويتبعه حيثما صعد إلى أعلى قصوره؛ وذلك قوله تعالى: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِباد اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ أي يُشقِّقونها شَقًّا كما يفجر الرجل النهر ها هنا وها هنا إلى حيث يريد . وعن ابن أبي نَجيح عن مجاهد « يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ يقودونها حيث شاءوا ، وتتبعهم حيثما مالوا مالت معهم . وروى

---

(١) قائله أبو ذؤيب يصف السحابات، والباء في «بماء» بمعنى «من» و«متى» معناها «في» في لغة هذيل ونئيج: أي مر سريع مع صوت.

أبو مقاتل عن أبي صالح عن سعد عن أبي سهل[١] عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع عيون في الجنة عينان تجريان من تحت العرش إحداهما التي ذكر الله ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾ [والأخرى الزنجبيل][٢] والأخريان نَضَّاختان من فوق العرش إحداهما التي ذكر الله [عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى][٣] «سَلْسَبِيلاً» والأخرى التَّسْنيم» ذكره الترمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول». وقال: فالتسنيم للمقربين خاصة شرباً لهم، والكافور للأبرار شرباً لهم؛ يمزج للأبرار من التسنيم شرابهم، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار منها مِزاج هكذا ذكره في التنزيل وسكت عن ذكر ذلك لمن هي شرب، فما كان للأبرار مِزاج فهو للمقربين صِرف، وما كان للأبرار صِرف فهو لسائر أهل الجنة مِزاج. والأبرار هم الصادقون، والمقربون: هم الصديقون.

[٧] ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾.

[٨] ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾.

[٩] ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ أي لا يُخلِفون إذا نَذَروا. وقال مَعْمَر عن قتادة: بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعُمْرة وغيره من الواجبات. وقال مجاهد وعكرمة: يوفون إذا نذروا في حقّ الله جلّ ثناؤه. وقال الفرّاء والجرجاني: وفي الكلام إضمار؛ أي كانوا يوفون بالنذر في الدنيا. والعرب قد تزيد مرّة «كان» وتحذف أخرى. والنذر: حقيقته ما أوجبه المكلّف على نفسه من شيء يفعله. وإن شئت قلت في حَدِّه: النذر: هو إيجاب المكلّف على نفسه من الطاعات، ما لو لم يوجبه لم يلزمه. وقال الكَلْبيّ: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ» أي يتممون العهود والمعنى واحد؛ وقد قال الله تعالى:

(١) هذا السند في الأصول: أبو مقاتل عن صالح بن سعيد عن أبي سهل الخ وصوبناه من التذكرة للقرطبي..

(٢) الزيادة من «الدر المنثور».

(٣) الزيادة من «التذكرة» «والدر المنثور».

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ أي أعمال نسكهم التي ألزموها أنفسهم بإحرامهم بالحج. وهذا يقوّي قول قتادة. وأن النذر يندرج فيه ما ٱلتزمه المرء بإيمانه من ٱمتثال أمر الله؛ قاله القُشيري. وروى أشهب عن مالك أنه قال: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ» هو نذر العتق والصيام والصلاة. وروى عنه أبو بكر بن عبد العزيز قال مالك: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ» قال: النذر: هو اليمين.

قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ﴾ أي يحذرون ﴿يَوْماً﴾ أي يوم القيامة. ﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ أي عالياً داهياً فاشياً[1] وهو في اللغة ممتدًا: والعرب تقول: ٱستطار الصدع في القارورة والزجاجة وٱستطال: إذا ٱمتد؛ قال الأعشى:

وبَانَتْ وقد أَسْأَرَتْ[2] في الفُؤَا ... دِ صَدْعاً على نَأْيِهَا مُسْتَطِيرَا

ويقال: ٱستطار الحريق: إذا ٱنتشر. وٱستطار الفجر إذا ٱنتشر الضوء.

وقال حسّان:

وهَانَ على سَرَاة بنِي لُؤَيٍّ ... حرِيق بالبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ[3]

وكان قتادة يقول: ٱستطار واللّهِ شرُّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض. وقال مقاتل: كان شره فاشياً في السموات فٱنشقت، وتناثرت الكواكب، وفزعت الملائكة، وفي الأرض نُسِفت الجبالُ وغارت المياهُ.

قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ قال ٱبن عباس ومجاهد؛ على قِلّته وحبّهم إياه وشهوتهم له. وقال الدّاراني: على حبّ الله. وقال الفُضَيل بن عِياض: على حبّ إطعام الطعام. وكان الربيع بن خيثم إذا جاءه السائل قال: أطعموه سُكَّراً فإن الربيع يحب السكر. ﴿مِسْكِيناً﴾ أي ذا مسكنة. وروى أبو صالح عن ٱبن عباس قال: هو الطوّاف يسألك مَالَكَ ﴿وَيَتِيماً﴾ أي من يتامى المسلمين. وروى منصور عن الحسن: أن

---

(١) في أ، ح، ل، و: «قاسيا» وهو تحريف. (٢) ويروى: أورثت.

(٣) سراة بني لؤي أي خيارهم. والبويرة: موضع ببني قريظة، يشير إلى ما فعله المسلمون ببني قريظة.

يتيماً كان يحضر طعام ٱبن عمر، فدعا ذات يوم بطعامه، وطلب اليتيم فلم يجده، وجاءه بعدما فرغ ٱبن عمر من طعامه فلم يجد الطعام، فدعا له بسَوِيق وعسل؛ فقال: دونك هذا، فوالله ما غُبِنتَ؛ قال الحسن وٱبن عمر: والله ما غُبِن. ﴿وَأَسِيراً﴾ أي الذي يؤسر فيحبس. فروى أبو صالح عن ٱبن عباس قال: الأسير من أهل الشرك يكون في أيديهم. وقاله قتادة. وروى ٱبن أبي نجيح عن مجاهد قال: الأسير هو المحبوس. وكذا قال سعيد بن جُبير وعطاء: هو المسلم يُحبس بحقّ. وعن سعيد بن جبير مثل قول قتادة وٱبن عباس. قال قتادة: لقد أمر الله بالأسرى أن يحسن إليهم، وأن أسراهم يومئذٍ لأهلُ الشّرك، وأخوك المسلم أحقُّ أن تطعمه. وقال عِكرمة: الأسير العبد. وقال أبو حمزة الثُّمَالي: الأسير المرأة، يدلّ عليه قوله عليه السلام: «ٱستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عَوَانٍ عندكم» أي أسيرات. وقال أبو سعيد الخُدري: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ فقال: «المسكين الفقير، واليتيم الذي لا أب له، والأسير المملوك والمسجون» ذكره الثعلبي. وقيل: نسخ إطعام المسكين آية الصدقات؛ وإطعام الأسير [آية] السيف؛ قاله سعيد بن جُبير. وقال غيره: بل هو ثابت الحكم، وإطعام اليتيم والمسكين على التطوع، وإطعام الأسير لحفظ نفسه إلاّ أن يتخير فيه الإمام. الماورديّ: ويحتمل أن يريد بالأسير الناقص العقل؛ لأنه في أسر خَبْله وجنونه، وأسر المشرك ٱنتقام يقف على رأي الإمام؛ وهذا بِرٌّ وإحسان. وعن عطاء قال: الأسير من أهل القبلة وغيرهم.

قلت: وكأنّ هذا القول عام يجمع جميع الأقوال، ويكون إطعام الأسير المشرك قربة إلى الله تعالى، غير أنه من صدقة التطوع، فأما المفروضة فلا. والله أعلم. ومضى القول في المسكين واليتيم والأسير وٱشتقاق ذلك من اللغة في «البقرة»[1] مستوفًى والحمد لله.

---

(١) راجع ٢/ ١٤ فما بعدها، وص ٢١.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ أي يقولون بألسنتهم للمسكين واليتيم والأسير «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ» في الله جلّ ثناؤه فزعاً من عذابه وطمعاً في ثوابه. ﴿لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً﴾ أي مكافأة. ﴿وَلاَ شُكُوراً﴾ أي ولا أن تثنوا علينا بذلك؛ قال ٱبن عباس: كذلك كانت نياتهم في الدنيا حين أطعموا. وعن سالم عن مجاهد قال: أما إنهم ما تكلّموا به ولكن علمه الله جلّ ثناؤه منهم فأثنى به عليهم؛ ليرغب في ذلك راغب. وقاله سعيد بن جُبير حكاه عنه القُشيريّ. وقيل: إن هذه الآية نزلت في مُطْعم بن ورقاء الأنصاريّ نذر نذراً فوفّى به. وقيل: نزلت فيمن تكفل بأسرى بدر وهم سبعة من المهاجرين: أبو بكر وعمر وعليّ والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد وأبو عبيدة رضي الله عنهم؛ ذكره الماورديّ. وقال مقاتل: نزلت في رجل من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكيناً ويتيماً وأسيراً. وقال أبو حمزة الثُّمَالي: بلغني أن رجلاً قال يا رسول الله أطعمني فإني واللّهِ مجهود؛ فقال: «والذي نفسي بيده ما عندي ما أطعمك ولكن ٱطلب» فأتى رجلاً من الأنصار وهو يتعشى مع ٱمرأته فسأله، وأخبره بقول النبي ﷺ؛ فقالت المرأة: أطعمه وٱسقِه. ثم أتى النبي ﷺ يتيم فقال: يا رسول الله! أَطعمني فإني مجهود. فقال: «ما عندي ما أطعمك ولكن ٱطلب» فٱستطعم ذلك الأنصاريّ فقالت المرأة: أطعمه وٱسقِه، فأطعمه. ثم أتى النبي ﷺ أسير فقال: يا رسول الله! أطعمني فإني مجهود. فقال؛ «والله ما معَي ما أطعمك ولكن ٱطلب» فجاء الأنصاريّ فطلب، فقالت المرأة: أطعمه وٱسقِه. فنزلت: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ ذكره الثعلبيّ. وقال أهل التفسير: نزلت في عليّ وفاطمة رضي الله عنهما وجارية لهما ٱسمها فضة.

قلت: والصحيح أنها نزلت في جميع الأبرار، ومَن فعل فعلاً حسناً؛ فهي عامة. وقد ذكر النقاش والثّعلبيّ والقشيريّ وغير واحد من المفسّرين في قصة عليّ وفاطمة وجاريتهما حديثاً لا يصح ولا يثبت، رواه ليث عن مجاهد عن ٱبن عباس في قوله عزّ وجلّ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ قال:

مرض الحسن والحسين فعادهما رسول الله ﷺ، وعادهما عامة العرب؛ فقالوا: يا أبا الحسن ـ ورواه جابر الجُعْفيّ عن قَنْبَر مولى عليّ قال: مرض الحسن والحسين حتى عادهما أصحاب رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبا الحسن ـ رجع الحديث إلى حديث ليث بن أبي سليم ـ لو نذرتَ عن ولديك شيئاً، وكل نذر ليس له وفاء فليس بشيء. فقال رضي الله عنه: إن بَرأ ولداي صمتُ لله ثلاثة أيام شكراً. وقالت جارية لهم نوبية: إن بَرأ سيِّداي صمت لله ثلاثة أيام شكراً. وقالت فاطمة مثل ذلك. وفي حديث الجُعْفيّ فقال الحسن والحسين: علينا مثل ذلك فأُلْبِس الغلامان العافية، وليس عند آل محمد قليل ولا كثير، فانطلق عليّ إلى شمعون بن حاريا الخيبريّ، وكان يهودياً، فٱستقرض منه ثلاثة أصوُع من شعير، فجاء به، فوضعه ناحية البيت، فقامت فاطمة إلى صاع فطحنته وٱختبزته، وصلّى عليٌّ مع النبي ﷺ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه. وفي حديث الجُعْفيّ: فقامت الجارية إلى صاع من شعير فخبزت منه خمسة أقراص، لكل واحد منهم قرص، فلما مضى صيامهم الأوّل وضع بين أيديهم الخبز والملح الجريش؛ إذ أتاهم مسكين، فوقف بالباب وقال: السلام عليكم أهلَ بيت محمد ـ في حديث الجُعْفي ـ أنا مسكين من مساكين أمة محمد ﷺ، وأنا والله جائع؛ أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة. فسمعه عليّ رضي الله عنه، فأنشأ[1] يقول:

فاطمَ ذاتَ الفضلِ واليقينْ: يا بنت خير الناسِ أجمعينْ
أما تَرَينَ البائسَ المسكينْ قد قام بالباب له حنينْ
يشكو إلى الله ويستكينْ يشكو إلينا جائعٌ حزينْ
كل ٱمرىء بكسبه رهينْ وفاعل الخيرات يستبِينْ

(١) هذه الأبيات والتي بعدها كل النسخ مجمعة على تحريفها، ولقد أحسن أبو حيان إذ يقول فيها: وذكر النقاش في ذلك حكاية طويلة جداً، ظاهرة الاختلاق، وفيها أشعار للمسكين واليتيم والأسير يخاطبون بها بيت النبوّة، وأشعار لفاطمة رضي الله عنها تخاطب كل واحد منهم، ظاهرها الاختلاق لسفساف ألفاظها وكسر أبياتها وسخافة معانيها. وسيأتي للمؤلف رحمه الله ما يضعف هذا الحديث ويزيفه.

مـوعِـدُنـا جَنّـة عِلّيـين حـرّمهـا الله علـى الضَّنِيـن
ولِلبخِيـل مـوقِـفٌ مهيـن تَهـوِي بِـهِ النـار إلـى سِجِّيـن
شـرابـه الحميـم والغِسْليـن مـن يفعـلِ الخيـرَ يقـم سميـن
ويَدْخُلِ الجنةَ أيّ حِينْ

فأنشأت فاطمة رضي الله عنها تقول:

أمرُكَ عندي يابن عَـمٍّ طاعة مـا بِيَ مـن لُـؤْم ولا وَضَـاعة
غَـدَيْـتُ فـي الخبـز لـه صنـاعة أطعِمـه ولا أبـالـي السَّـاعة
أرجـو إذا أشبعـتُ ذا المَجَـاعة أنْ ألحـقَ الأخيـارَ والجَمَـاعة
وأدخلَ الجنةَ لي شَفاعة

فأطعموه الطعام، ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القَرَاح، فلما أن كان في اليوم الثاني قامت إلى صاع فطحنته واختبزته، وصلّى عليٌّ مع النبي ﷺ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم؛ فوقف بالباب يتيم فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، يتيم من أولاد المهاجرين استشهد والدي يوم العَقَبة[1]. أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة. فسمعه عليّ فأنشأ يقول:

فـاطِـمَ بنـتَ السَّيـدِ الكـريـم بنـتَ نبـيٍّ ليـس بـالـزَّنِيـم
لقـد أتـى الله بِـذِي اليتيـم مـن يـرحـم اليـوم يكـن رحِيـم
ويـدخـل الجنـة أي سلِيـم قـد حـرم الخلـدُ علـى اللئيـم
ألاَّ يَحـوزَ الصـراطَ المستقيـم يـزلّ فـي النـار إلـى الجحيـم
شرابهُ الصديدُ والحميمْ

فأنشأت فاطمة رضي الله عنها تقول:

أطعِمـه اليـوم ولا أبـالِـي وأوثـر اللّـهَ علـى عيـالـي
أَمسـوْا جيـاعـاً وَهُـمُ أَشْبَـالـي أصغـرُهـم يُقتَـلُ فـي القِتـالِ

(١) كذا في الأصل.

بِكَـرْبَـلاَ يُقتَـلُ بـاْغْتِيَـالِ يـا ويـلُ لِلقـاتِـلِ مَـعْ وَبَـالِ
تَهـوى بـه النـار إلـى سِفـالِ وفـي يـديـهِ الغُـلّ والأغـلال
كبولة زادت على الأكبالِ

فأطعموه الطعام ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القَرَاح؛ فلما كانت في اليوم الثالث قامت إلى الصاع الباقي فطحنته واختبزته، وصلّى عليٌّ مع النبي ﷺ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم؛ إذ أتاهم أسير فوقف بالباب فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، تأسروننا وتَشُدُّوننا ولا تُطْعِموننا! أطعموني فإنّي أسير محمد. فسمعه عليّ فأنشأ يقول:

فـاطـم يـا بنـتَ النبـيِّ أحمـدْ بنـت نبـيٍّ سيِّـدٍ مُسَـوَّدْ
وسمـــاه الله فهـــو محمـــد قـد زانـه الله بِحسـنٍ أغيـدْ
هــذا أسِيــرٌ للنبــيّ المهتـدْ مُثقَّـــلٌ فـــي غُلِّـــه مُقيَّـــدْ
يَشكـو إلينـا الجـوعَ قـد تمـددْ مـن يُطعِـمِ اليـوم يجِـده فـي غـدْ
عنـد العلـيّ الـواحـدِ المـوحَّـدْ مـا يـزرع الـزارعُ سـوف يَحصُـدْ
أعطيه لا لا تجعليهِ أقعد

فأنشأت فاطمة رضي الله تعالى عنها تقول:

لـم يَبْـقَ مِمّـا جـاء غيـرُ صـاعْ قـد ذهبـت كَفّـي مـع الـذِّراعْ
أبنــايَ والله هُمَـــا جِيَـــاعْ يــا ربّ لا تتــركهمــا ضيــاعْ
أبــوهمــا للخيــر ذو اصطنــاعْ يَصطنِـع المعـروفَ بـابتــداعْ
عَبْـلُ الـذِّراعيـن شـديـد البـاعْ ومــا علـى رأسِـيَ مِـن قِنـاعْ
إلاّ قناعاً نَسْجُه أنساعْ[1]

فأعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيام ولياليها لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القَرَاح، فلما أن كان في اليوم الرابع، وقد قضى الله النذر أخذ بيده اليمنى الحسن، وبيده اليسرى الحسين، وأقبل نحو

(١) النسع ـ بالكسر ـ: سير يضفر على هيئة أعنة النعال، تشد به الرحال.

رسول الله ﷺ وهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع؛ فلما أبصرهم رسول الله ﷺ قال: «يا أبا الحسن ما أشدّ ما يسوءني ما أرى بكم انطلق بنا إلى ابنتي فاطمة» فانطلقوا إليها وهي في محرابها، وقد لصق بطنها بظهرها، وغارت عيناها من شدة الجوع، فلما رآها رسول الله ﷺ وعرف المجاعة في وجهها بكى وقال: «واغوثاه يا الله، أهلُ بيت محمد يموتون جوعاً» فهبط جبريل عليه السلام وقال: السلام عليك، ربك يقرئك السلام يا محمد، خذه هنيئاً في أهل بيتك. قال: «وما آخذ يا جبريل» فأقرأه ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾ قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول: فهذا حديث مُزوّق مُزيّف، قد تَطرّف فيه صاحبه حتى تَشبّه على المستمعين، فالجاهل بهذا الحديث يَعَضُّ شفتيه تلهفاً ألاّ يكون بهذه الصفة، ولا يعلم أن صاحب هذا الفعل مذموم؛ وقد قال الله تعالى في تنزيله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ وهو الفضل الذي يفضل عن نفسك وعيالك، وجرت الأخبار عن رسول الله ﷺ متواترة بأن «خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنًى». «وابدأ بنفسك ثم بمن تعول» وافترض الله على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم. وقال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يَقُوت» أفيحسب عاقل أن عليًا جهل هذا الأمر حتى أجهد صبياناً صغاراً من أبناء خمس أو ست على جوع ثلاثة أيام ولياليهن؟ حتى تَضوَّروا من الجوع، وغارت العيون منهم؛ لخلاء أجوافهم، حتى أبكى رسول الله ﷺ ما بهم من الجهد. هَبْ أنه آثَرَ على نفسه هذا السائل، فهل كان يجوز له أن يحمل أهله على ذلك؟! وهَبْ أنّ أهله سمحت بذلك لعليّ فهل جاز له أن يحمل أطفاله على جوع ثلاثة أيام بلياليهن؟! ما يرُوج مثل هذا إلا على حَمْقى جهّال؛ أبى الله لقلوب متنبهة أن تظن بعليّ مثل هذا. وليت شعري من حفظ هذه الأبيات كل ليلة عن عليّ وفاطمة، وإجابة كل واحد منهما صاحبه، حتى أدّاه إلى هؤلاء الرواة؟! فهذا وأشباهه من أحاديث أهل السجون فيما أرى. بلغني أن قوماً

يُخلَّدون في السجون فيبقون بلا حيلة، فيكتبون أحاديث في السَّمَر وأشباهه، ومثل هذه الأحاديث مفتعلة، فإذا صارت إلى الجهابذة رمَوا بها وزَيَّفوها، وما من شيء إلا له آفة ومكيدة، وآفة الدِّين وكيُده أكثر.

[١٠] ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

[١١] ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾ «عَبُوساً» من صفة اليوم، أي يوماً تعبِس فيه الوجوه من هوله وشدته، فالمعنى نخاف يوماً ذا عبوس. وقال ٱبن عباس يعبس الكافر يومئذٍ حتى يسيلَ منه عرَق كالقطران. وعن ٱبن عباس: العَبُوس: الضَّيِّق، والقَمْطَرِير: الطويل؛ قال الشاعر:

شدِيداً عبوساً قَمْطَرِيراً

وقيل: القَمْطرير الشديد؛ تقول العرب: يوم قَمْطرير وقُمَاطِر وعَصِيب بمعنًى؛ وأنشد الفرّاء:

بنِي عَمِّنَا هل تَذْكُرونُ بَلاَءَنَا ... عليكُم إذا ما كان يومٌ قُمَاطِرُ

بضم القاف. وٱقْمَطَرَّ إذا ٱشتدّ. وقال الأخفش: القمطرير: أشدّ ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء؛ قال الشاعر:

ففرُّوا إذا ما الحرب ثار غُبارُها ... ولَجَّ بها اليومُ العَبُوسُ القُمَاطِرُ

وقال الكسائي: يقال ٱقْمَطَرّ اليومُ وٱزْمَهَرَّ ٱقمِطراراً وٱزمِهراراً، وهو القمطرير والزمهرير، ويوم مُقْمَطِرّ إذا كان صعباً شديداً؛ قال الهذليّ[1]:

بَنُو الحرْبِ أرْضِعْنا لهم مُقْمَطِرَّةٌ ... ومَنْ يُلْقَ مِنّا ذلكَ اليومَ يَهْرُبِ

---

(١) البيت لحذيفة بن أنس الهذلي، والذي في ديوان الهذليين:

بنو الحرب أرضعنا بها مقمطرة ... ومن يلق منا يلق سيد مدرب

أرضعنا مبني للمجهول. مقمطرة: من أقمطرت الناقة إذا لقحت. ويلق بني للمجهول في اللفظين. والسيد عند هذيل: الأسد. والمدرب: الضاري.

وقال مجاهد: إنّ العبُوس بالشفتين، والقمطرير بالجبهة والحاجبين؛ فجعلها من صفات الوجه المتغيّر من شدائد ذلك اليوم؛ وأنشد ٱبن الأعرابيّ:

يَغْدُو على الصَّيْدِ يَعُودُ مُنْكَسِرْ ويَقْمَطِـرُّ سـاعـةً ويَكْفَهِـرّْ

وقال أبو عبيدة: يقال رجل قَمْطرير أي متقبض ما بين العينين. وقال الزجاج: يقال ٱقْمَطرَّت الناقةُ: إذا رَفَعت ذَنَبها وجَمَعت قُطْرَيها، وزَمَّت بأنفها؛ فٱشتقه مِن القُطْر، وجعل الميم مزيدة. قال أسد بن ناعِصة:

وٱصطليتُ الحروبَ في كلّ يوم باسِـلِ الشَّرِّ قَمْطَرِيـرِ الصبَّاحِ

قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي دفع عنهم ﴿شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ أي بأسه وشدته وعذابه ﴿وَلَقَّاهُمْ﴾ أي أتاهم وأعطاهم حين لقُوه أي رأوه ﴿نَضْرَةً﴾ أي حسناً ﴿وَسُرُوراً﴾ أي حبوراً. قال الحسن ومجاهد: «نَضْرَةً» في وجوههم «وَسُروراً» في قلوبهم. وفي النضرة ثلاثة أوجه: أحدها - أنها البياض والنقاء؛ قاله الضحاك. الثاني - الحسن والبهاء؛ قاله ٱبن جبير. الثالث - أنها أثر النعمة؛ قاله ٱبن زيد.

[١٢] ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

[١٣] ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

[١٤] ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ على الفقر. وقال القرظيّ: على الصوم. وقال عطاء: على الجوع ثلاثة أيام وهي أيام النذر. وقيل: بصبرهم على طاعة الله، وصبرهم على معصية الله ومحارمه. و«ما»: مصدرية، وهذا على أن الآية نزلت في جميع الأبرار ومن فعل فعلاً حسناً. وروى ٱبن عمر أن رسول الله ﷺ سئل عن الصبر فقال: «الصبر أربعة: أوّلها الصبر عند الصدمة الأولى، والصبر على أداء الفرائض، والصبر على ٱجتناب محارم الله، والصبر على المصائب». ﴿جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ أي أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير. أي يسمى

---

(١) في أ، ح: «وروى».

بحرير الدنيا وكذلك الذي في الآخرة [وفيه] ما شاء الله عزّ وجلّ من الفضل. وقد تقدم[١]: أن من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، وإنما أُلبسه من أُلبسه في الجنة عوضاً عن حبسهم أنفسهم في الدنيا عن الملابس التي حرم الله فيها.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ أي في الجنة؛ ونصب «مُتَّكِئِينَ» على الحال من الهاء والميم في «جَزَاهُمْ» والعامل فيها جزى ولا يعمل فيها «صَبَرُوا»؛ لأن الصبر إنما كان في الدنيا والاتكاء في الآخرة. وقال الفرّاء. وإن شئت جعلت «مُتَّكِئِينَ» تابعاً، كأنه قال جزاهم جنة «مُتَّكِئِينَ فِيهَا». ﴿عَلَى ٱلْأَرَائِكِ﴾ السُّرُر في الحِجَال وقد تقدم[٢]. وجاءت عن العرب أسماء تحتوي على صفات: أحدها الأريكة لا تكون إلا في حَجَلة على سرير، ومنها السَّجْل، وهو الدّلو الممتلىء، ماءً، فإذا صَفِرت لم تُسمَّ سَجْلاً، وكذلك الذَّنُوب لا تُسمَّى ذَنُوباً حتى تُملأ، والكأس لا تسمى كأساً حتى تُتْرَع من الخمر، وكذلك الطَّبَق الذي تُهدَى عليه الهدية مِهْدًى، فإذا كان فارغاً قيل طَبَق أو خِوان؛ قال ذو الرُّمَّة:

خُدُودٌ جَفَتْ في السَّيْرِ حتَّى كأنَّمَا ... يُبَاشِرْنَ بِالْمَعْزَاءِ مَسَّ الأرائِكِ[٣]

أي الفرش على السرر. ﴿لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً﴾ أي لا يرون في الجنة شدة حرٍّ كحرّ الشمس ﴿وَلاَ زَمْهرِيراً﴾ أي ولا برداً مفرطاً؛ قال الأعشى:

مُنَعَّمَــةٌ طَفْلَــةٌ كَــالْمَهَــا ... ةِ لَمْ تَرَ شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيرَا[٤]

وعن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أشتكت النارُ إلى ربِّها عزّ وجلّ قالت: يا ربّ أَكَلَ بعضي بعضاً، فجعل لها نَفَسين نَفَساً في الشتاء ونَفَساً في الصيّف، فشدّة ما تجدون من البرد من زمهريرها، وشدّة ما تجدون من الحرّ في الصيف

---

(١) راجع ١٢/١٩.

(٢) راجع ١٠/٣٩٨.

(٣) المعزاء: الأرض الصلبة. يقول: من شدة الحاجة إلى النوم يرون الأرض الصلبة ذات الحجارة مثل الفرش على الأرائك وهي السرر. ويروى: «خدودا» على أنه مفعول لفعل في البيت قبله.

(٤) الذي في ديوان الأعشى طبع أوروبا. مبتلة الخلق مثل المهاة.. الخ.

من سَمُومها». وعن النبي ﷺ أنه قال: «إن هواء الجنة سَجْسَج: لا حرٌّ ولا بردٌ» والسَّجْسَج: الظِّل الممتد كما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس. وقال مُرَّة الهَمْداني: الزمهرير البرد القاطع. وقال مقاتل بن حيان: هو شيء مثل رءوس الإبر ينزل من السماء في غاية البرد. وقال ابن مسعود: هو لون من العذاب، وهو البرد الشديد، حتى إن أهل النار إذا أُلقوا فيه سألوا الله أن يعذِّبهم بالنار ألف سنة أهونَ عليهم من عذاب الزمهرير يوماً واحداً. قال أبو النَّجْم:

أو كُنتُ ريحاً كُنتُ زَمْهَريراً

وقال ثعلب: الزَّمْهرير: القمر بلغة طيِّء؛ قال شاعرهم:

وليلةٍ ظَلامُها قدِ اعْتَكَرْ قَطَعْتُها والزَّمْهَريرُ ما زَهَرْ

ويروى: ما ظهر؛ أي لم يطلع القمر. فالمعنى لا يرون فيها شمساً كشمس الدنيا ولا قمراً كقمر الدنيا، أي إنهم في ضياء مستديم، لا ليل فيه ولا نهار؛ لأن ضوء النهار بالشمس، وضوء الليل بالقمر. وقد مضى هذا المعنى مجوداً في سورة «مريم»[1] عند قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾. وقال ابن عباس: بينما أهل الجنة في الجنة إذ رأوا نوراً ظنوه شمساً قد أشرقت بذلك النور الجنة، فيقولون: قال ربنا: ﴿لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً﴾ فما هذا النور؟ فيقول لهم رضوان: ليست هذه شمس ولا قمر، ولكن هذه فاطمة وعليّ ضحكا، فأشرقت الجنان من نور ضحكهما، وفيهما أنزل الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى ٱلإِنْسَانِ﴾ وأنشد:

أنا مَوْلًى لِفَتًى أُنْزِلَ فيه هَلْ أَتَى
ذاكَ عليٌّ المُرْتَضَى وابنُ عَمٍّ المصطفَى

قوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا﴾ أي ظل الأشجار في الجنة قريبة من الأبرار، فهي مُظِلّة عليهم زيادة في نعيمهم وإن كان لا شمس ولا قمر ثَمَّ؛ كما أن أمشاطهم الذهب والفضة،

(١) راجع ١١/١٢٧.

وإن كان لا وسخ ولا شَعث ثَمَّ. ويقال: إن ٱرتفاع الأشجار في الجنة مقدار مائة عام، فإذا ٱشتهى وليّ الله ثمرتها دانت حتى يتناولها. وٱنتصبت «دَانِيَةً» على الحال عطفاً على «مُتَّكِئِينَ» كما تقول: في الدار عبد الله متكئاً ومرسلة عليه الحجال. وقيل: ٱنتصبت نعتاً للجنة؛ أي وجزاهم جنةً دانيةً، فهي صفة لموصوف محذوف. وقيل: على موضع ﴿لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً﴾ ويرون دانيةً. وقيل: على المدح أي دنت دانيةً. قاله الفراء. «ظِلاَلُهَا» الظلال مرفوعة بدانية. ولو قرى برفع دانية على أن تكون الظلال مبتدأ ودانية الخبر لجاز، وتكون الجملة في موضع الحال من الهاء والميم في «وجَزَاهُمْ» وقد قرىء بذلك. وفي قراءة عبد الله «وَدَانِياً عَلَيْهِمْ» لتقدم الفعل. وفي حرف أبيّ «وَدَانٍ» رفع على الاستئناف ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ أي سُخِّرت لهم ﴿قُطُوفُها﴾ أي ثمارها ﴿تَذْلِيلاً﴾ أي تسخِيراً، فيتناولها القائم والقاعد والمضطجع، لا يرد أيديهم عنها بُعدٌ ولا شوك؛ قاله قتادة. وقال مجاهد: إن قام أحد ٱرتفعت له، وإن جلس تدلّت عليه، وإن ٱضطجع دنت منه فأكل منها. وعنه أيضاً: أرض الجنة من وَرِق، وترابها الزعفران، وطيبها مسك أذفر، وأصول شجرها ذهب وورِق، وأفنانها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت، والثمر تحت ذلك كله؛ فمن أكل منها قائماً لم تؤذِه، ومن أكل منها قاعداً لم تؤذِه، ومن أكل منها مضطجعاً لم تؤذِه. وقال ٱبن عباس: إذا همَّ أن يتناول من ثمارها تدلّت إليه حتى يتناول منها ما يريد، وتذليل القطوف تسهيل التناول. والقطوف: الثمار، الواحد قِطف بكسر القاف، سمّي به لأنه يُقطَف، كما سمّي الجَنَى لأنه يُجنى. «تَذْلِيلاً» تأكيد لما وصف به من الذّل؛ كقوله: ﴿وَنزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾. الماورديّ: ويحتمل أن يكون تذليل قطوفها أن تبرز لهم من أكمامها، وتخلص لهم من نواها.

قلت: وفي هذا بعدٌ؛ فقد روى ٱبن المبارك، قال: أخبرنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جُبير عن ٱبن عباس قال: نخل الجنة: جذوعها زُمُرّدٌ أخضر، وكَرَبُها ذهب أحمر، وسَعَفها كُسْوة لأهل الجنة، منها مُقطَّعاتهم وحُلَلهم، وثمرها أمثال القلال والدِّلاء، أشدّ

بياضاً من اللَّبَن، وأحلى من العسل، وألين من الزُّبْد ليس فيه عَجَم. قال أبو جعفر النحاس: ويقال المذلَّل الذي قد ذلّله الماءُ أي أرواه. ويقال المذلّل الذي يُفَيِّئُهُ أدنى ريح لنَعْمته، ويقال المذلَّل المُسَوَّى؛ لأن أهل الحجاز يقولون: ذَلِّلْ نَخْلكَ أي سَوِّه، ويقال المُذَلَّل القريب المتناوَل؛ من قولهم: حائط ذَليلٌ أي قصير. قال أبو جعفر[1]: وهذه الأقوال التي حكيناها ذكرها أهل العلم باللغة وقالوها في قول آمرىء القيس:

وساقٍ كَأنبوبِ السَّقِيّ المُذَلَّلِ[2]

[١٥] ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ (١٥)﴾.

[١٦] ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦)﴾.

[١٧] ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧)﴾.

[١٨] ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا (١٨)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي يدور على هؤلاء الأبرار الخدم إذا أرادوا الشراب ﴿بِآنِيَةٍ مِن فِضَّةٍ﴾ قال آبن عباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء؛ أي ما في الجنة أشرف وأعلى وأنقى. ثم لم تنف الأواني الذهبية بل المعنى يسقون في أواني الفضة، وقد يسقون في أواني الذهب. وقد قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وأَكْوَابٍ﴾. وقيل: نَبّه بذكر الفضّة على الذهب؛ كقوله: ﴿سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ أي والبرد؛ فنبّه بذكر أحدهما على الثاني. والأكواب: الكِيزان العظام التي لا آذان لها ولا عُرَى، الواحد منها كوب؛ وقال عَدِيّ:

مُتَّكِئاً تُقْرَعُ[3] أبوابُهُ ... يَسْعَى عليهِ العبدُ بِالكُوبِ

وقد مضى في «الزخرف»[4]. ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَ * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ أي في صفاء القوارير وبياض الفضة؛ فصفاؤها صفاء الزجاج وهي من فضّة. وقيل: أرض الجنة

---

(١) كذا في نسخ الأصل. والذي في المطبوع: «أبو حنيفة». (٢) الأنبوب: البردى. والسقي: النخل المسقي. شبه ساق المرأة ببردى قد نبت تحت نخل، فالنخل يظله من الشمس، وذلك أحسن ما يكون منه. وصدر البيت: وكشح لطيف كالجديل مخصر

(٣) يروى: تخفق. بدل تقرع. (٤) راجع ١١١/١٦.

من فضّة، والأواني تتخذ من تربة الأرض التي هي منها. ذكره ابن عباس وقال: ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه، إلا القوارير من فضة. وقال: لو أخذت فضّة من فضّة الدنيا فضربتها حتى تجعلها مثل جناح الذُّبَاب لم ترَ من ورائها الماء، ولكن قوارير الجنة مثل الفضّة[1] في صفاء القوارير. ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾ قراءة العامة بفتح القاف والدال؛ أي قَدّرها لهم السقاة الذين يطوفون بها عليهم. قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: أتوا بها على قدرِيِّهم؛ بغير زيادة ولا نقصان. الكلبي: وذلك ألذ وأشهى؛ والمعنى: قدّرتها الملائكة التي تطوف عليهم. وعن ابن عباس أيضاً: قدّروها على مِلء الكف لا تزيد ولا تنقص، حتى لا تؤذيهم بثقل أو بإفراط صغر. وقيل: إن الشاربين قَدّروا لها مقادير في أنفسهم، على ما اشتهوا وقَدّروا. وقرأ عبيد بن عمير الشَّعْبي وابن سيرين «قُدِّروها» بضم القاف وكسر الدال؛ أي جعلت لهم على قدر إرادتهم. وذكر هذه القراءة المهدويّ عن عليّ وابن عباس رضي الله عنهما؛ وقال: ومن قرأ «قُدِّرُوهَا» فهو راجع إلى معنى القراءة الأخرى، وكأن الأصل قُدِّروا عليها فحذف الجر؛ والمعنى قُدِّرت عليهم؛ وأنشد سيبويه[2]:

آلَيْتَ حَبَّ العِراقِ الدَّهْرَ آكُلُهُ ... والْحَبُّ يأكله في القَرْيةِ السُّوسُ

وذهب إلى أن المعنى على حَبِّ العراق. وقيل: هذا التقدير هو أن الأقداح تطير فتغترف بمقدار شهوة الشارب؛ وذلك قوله تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾ أي لا يفضل عن الرّيّ ولا ينقص منه، فقد أُلْهِمت الأقداحُ معرفةَ مقدار رِيّ المشتهي حتى تغترف بذلك المقدار. ذكر هذا القول الترمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول».

قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً﴾ وهي الخمر في الإناء. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً﴾ «كَانَ» صلة؛ أي مزاجها زنجبيل، أو كان في حكم الله زنجبيلاً. وكانت العرب تستلذ من

---

(١) أي في بياضها.

(٢) قائله المتلمس. ويروى: أطعمه. والرواية الصحيحة في «آليت» بالفتح لأنه يخاطب عمرو بن هند الملك، وكان قد أقسم ألا يطعم المتلمس حب العراق. فقال له المتلمس مستهزئاً آليت على حب العراق لا أطعمه، وقد وجدت منه بالشام ما يغنى عما عندك، فمنه هناك كثير، بحيث يأكله السوس. وأراد بالقرية الشام.

الشراب ما يُمزج بالزنجبيل لِطيب رائحتِه؛ لأنه يَحْذُو اللسان، ويهضم المأكول، فرغبوا في نعيم الآخرة بما أعتقدوه نهاية النَّعمة والطيب. وقال المسيَّب بن عَلَس يصف ثَغْر المرأة:

وكَـأنَّ طَعْـمَ الـزنجبِيـلِ بِـهِ إِذْ ذُقْتَـهُ وَسُـلاَفَـةَ الخَمْـرِ

ويروى: الكَرْم. وقال آخر[1]:

كَـأَنَّ جَنِيًّـا مِـن الـزَّنْجَبِيـلِ بَـاتَ بِفِيهَـا وَأَرْياً مشُـوراً

ونحوه قول الأعشى:

كَـأَنَّ القَـرَنْفُـلَ والـزَّنْجَبِيـلَ بَـاتَـا بِفيهَـا وأريـاً مَشُـوراً

وقال مجاهد: الزنجبيل أسم للعين التي منها مزاج شراب الأبرار. وكذا قال قتادة: والزّنجبيل أسم العين التي يشرب بها المقربون صِرفاً وتمزج لسائر أهل الجنة. وقيل: هي عين في الجنة يوجد فيها طعم الزنجبيل. وقيل: إنّ فيه معنى الشراب الممزوج بالزنجبيل. والمعنى كأنّ فيها زنجبيلاً. ﴿عَيْناً﴾ بدل من كأس. ويجوز أن ينتصب بإضمار فعل أي يسقون عيناً. ويجوز نصبه بإسقاط الخافض أي من عين على ما تقدم في قوله تعالى: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾. ﴿فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾ السَّلْسبيل الشراب اللذيذ، وهو فَعْلَلِيل من السَّلاَلة؛ تقول العرب: هذا شراب سَلِسٌ وسَلْسَال وسَلْسَلٌ وسَلْسَبِيل بمعنًى؛ أي طيّب الطعم لذيذه. وفي الصحاح: وتسلسل الماء في الحلق جرى، وسَلْسَلْتُه أنا صببته فيه، وماء سَلْسَل وسَلْسَال: سهل الدخول في الحلق لعذوبته وصفائه، والسُّلاسل بالضم مثله. وقال الزجاج: السَّلْسَبيل في اللغة: اسم لما كان في غاية السَّلاَسة؛ فكأنّ العين سمّيت بصفتها. وعن مجاهد قال: سَلْسَبيلا: حديدة الجَرْية تسيل في حلوقهم أنسلالاً. ونحوه عن أبن عباس: إنها الحديدة الجَرْي. ذكره الماورديّ؛ ومنه قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

---

(١) الذي في ديوان الأعشى هذا البيت لا الذي بعده، وفيه: خالط فاها.. الخ والظاهر أن البيتين واحد واختلفت الرواية. والأرى: العسل.

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عليهمُ بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ(١)

وقال أبو العالية ومقاتل: إنما سميّت سَلْسَبيلاً؛ لأنها تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم، تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنة. وقال قتادة: سلسلة منقاد ماؤها حيث شاءوا. ونحوه عن عِكرمة. وقال القَفَّال: أي تلك عين شريفة فَسَلْ سَبِيلاً إليها. وروي هذا عن عليّ رضي الله عنه. وقوله: «تسمَّى» أي إنها مذكورة عند الملائكة وعند الأبرار وأهل الجنة بهذا الاسم. وصرف سلسبيل؛ لأنه رأس آية؛ كقوله تعالى: ﴿الظُّنُونَا﴾ و ﴿السَّبِيلاَ﴾.

[١٩] ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩)﴾.

[٢٠] ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠)﴾.

[٢١] ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)﴾.

[٢٢] ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ بيّن مَن الذي يطوف عليهم بالآنية؛ أي ويخدمهم ولدان مُخلَّدون، فإنهم أخفُّ في الخدمة. ثم قال: «مُخَلَّدُونَ» أي باقون على ما هم عليه من الشَّباب والغَضَاضة والحُسْن، لا يَهْرَمون ولا يتغيّرون، ويكونون على سنّ واحدة على مَر الأزمنة. وقيل: مُخلَّدون لا يموتون. وقيل: مُسوَّرون مُقرَّطون؛ أي مُحلَّون والتخليد التحلية. وقد تقدم(٢) هذا. ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾ أي ظننتهم من حسنهم وكثرتهم وصفاء ألوانهم : لؤلؤاً مفرقاً في عَرْصة المجلس، واللؤلؤ إذا نُثِر على بساط(٣) كان أحسن منه منظوماً. وعن المأمون أنه ليلة زُفَّت إليه بُوران بنت الحسن بن سهل، وهو

---

(١) البريص: نهر بدمشق. وبردى نهر آخر بدمشق أيضاً أي ماء بردى. ويصفق: يمزج. والرحيق: الخمر البيضاء. (٢) راجع ١٧/٢٠٢.

(٣) في ل، و: «واللؤلؤ إذ نثر كان أحسن. . .».

على بساط منسوج من ذهب، وقد نثَرَت عليه نساءُ دار الخليفة اللؤلؤَ، فنظر إليه منثوراً على ذلك البساط فٱستحسن المنظر وقال: للّهِ دَرُّ أبي نُواس كأنه أبصر هذا حيث يقول:

كأنَّ صُغْرى وكُبْرَى من فَقَاقِعها ... حَصْبَاءُ دَرٍّ على أرضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وقيل: إنما شبههم بالمنثور؛ لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين إذا شبههنّ باللؤلؤ المكنون المخزون؛ لأنهنّ لا يُمتهنَّ بالخدمة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْت نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ «ثَمَّ»: ظرف مكان أي هناك في الجنة، والعامل في «ثَمَّ» معنى «رَأَيْتَ» أي وإذا رأيت ببصرك «ثَمَّ». وقال الفرّاء: في الكلام «ما» مضمرة؛ أي وإذا رأيت ما ثَمّ؛ كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي ما بينكم. وقال الزجاج: «ما» موصولة بـ«ـثم» على ما ذكره الفرّاء، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصّلة، ولكن «رَأَيْتَ» يتعدّى في المعنى إلى «ثَمَّ» والمعنى: إذا رأيت ببصرك «ثَمَّ» ويعني بـ«ـثَمَّ» الجنة، وقد ذكر الفرّاء هذا أيضاً. والنعيم: سائر ما يُتنعّم به. والمُلْك الكبير: ٱستئذان الملائكة عليهم؛ قاله السُّديّ وغيره. قال الكلبيّ: هو أن يأتي الرسول من عند الله بكرامة من الكُسْوة والطعام والشراب والتحف إلى وليّ الله وهو في منزله، فيستأذن عليه؛ فذلك المُلْك العظيم. وقاله مقاتل بن سليمان. وقيل: المُلْك الكبير: هو أن يكون لأحدهم سبعون حاجباً، حاجباً دون حاجب، فبينما وليّ الله فيما هو فيه من اللذة والسرور إذ يستأذن عليه مَلَك من عند الله، قد أرسله الله بكتاب وهدية وتحفةٍ من ربّ العالمين لم يرها ذلك الوليّ في الجنة قطّ، فيقول للحاجب الخارج: ٱستأذن على وليّ الله فإن معي كتاباً وهدية من ربّ العالمين. فيقول هذا الحاجب للحاجب الذي يليه: هذا رسول من ربِّ العالمين، ومعه كتاب وهديّة يستأذن على وليّ الله؛ فيستأذن كذلك حتى يبلغ إلى الحاجب الذي يلي وليّ الله فيقول له: يا وليّ الله! هذا رسول من ربّ العالمين يستأذن عليك، معه كتاب وتُحْفة من ربّ العالمين أفيؤذن له؟ فيقول: نعم! فأذنوا له. فيقول ذلك الحاجب الذي يليه: نَعَم فأذنوا له[1]. فيقول الذي يليه للآخر كذلك حتى يبلغ

(١) في أ، ح، ل: «فقاربوا له».

الحاجب الآخر، فيقول له: نَعَم أيها المَلك؛ قد أذن لك، فيدخل فيسلّم عليه ويقول: السَّلامُ يُقرئك السَّلام، وهذه تحفة، وهذا كتاب من رب العالمين إليك. فإذ هو مكتوب عليه: من الحيّ الذي لا يموت، إلى الحيّ الذي يموت. فيفتحه فإذا فيه: سلام على عبدي ووليي ورحمتي وبركاتي. يا وليي أما آن لك أن تشتاق إلى رؤية ربّك؟ فيستخفه الشوق فيركب البُرَاق فيطير به البُرَاق شوقاً إلى زيارة علام الغيوب، فيعطيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وقال سفيان الثوريّ: بلغنا أن المُلْك الكبير تسليم الملائكة عليهم؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾. وقيل: المُلْك الكبير كون التّيجان على رءوسهم كما تكون على رأس ملك من الملوك. وقال الترمذيّ الحكيم: يعني مُلْك التكوين، فإذا أرادوا شيئاً قالوا له كن. وقال أبو بكر الورّاق: مُلْك لا يتعقبه هُلْك. وفي الخبر عن النبي ﷺ: «إنّ الملك الكبير هو [أنّ][1] أدناهم منزلة ينظر في مُلْكه مسيرة ألفي عام، يَرَى أقصاه كما يرى أدناه» قال: «وإن أفضلهم منزلة مَن ينظر في وجه ربّه تعالى كل يوم مرتين» سبحان المنعم[2].

قوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ قرأ نافع وحمزة وٱبن محيصن «عاليهِم» ساكنة الياء، وٱختاره أبو عبيد ٱعتباراً بقراءة ٱبن مسعود وٱبن وثاب وغيرهما «عَالِيَتُهُمْ» وبتفسير ٱبن عباس: أما رأيت الرجل عليه ثيابٌ يعلوها أفضل منها. الفراء: وهو مرفوع بالابتداء وخبره «ثِيَابُ سُنْدُسٍ» وٱسم الفاعل يراد به الجمع. ويجوز في قول الأخفش أن يكون[3] إفراده على أنه ٱسم فاعل متقدّم و «ثَيَابُ» مرتفعة به وسَدّت مسدّ الخبر، والإضافة فيه في تقدير الانفصال لأنه لم يُخصّ، وٱبتدىء به لأنه اختصّ بالإضافة. وقرأ الباقون «عَالِيَهُمْ» بالنصب. وقال الفراء: هو كقولك فَوْقَهم، والعرب تقول: قومُك داخلَ الدارِ فينصبون داخل على الظرف، لأنه مَحلّ. وأنكر الزجاج هذا وقال: هو مما لا نعرفه في الظروف، ولو كان ظرفاً لم يجز إسكان الياء، ولكنه بالنصب على الحال من شيئين: أحدهما ـ الهاء والميم في قوله:

---

(١) زيادة يقتضيها المعنى.

(٢) جملة: «سبحان المنعم»: في الأصل المطبوع.

(٣) جملة: «أن يكون» ساقطة من الأصل.

«يطُوفُ عَلَيْهِمْ» أي على الأبرار «وِلْدَانٌ» عالياً الأبرارَ ثيابُ سندسٍ؛ أي يطوف عليهم في هذه الحال، **والثاني** - أن يكون حالاً من الولدان؛ أي ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾ في حال علوّ الثياب أبدانهم. وقال أبو عليّ: العامل في الحال إمّا ﴿لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ وإمّا ﴿جَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ قال: ويجوز أن يكون ظرفاً فصُرِف. المهدوي: ويجوز أن يكون ٱسم فاعل ظرفاً؛ كقولك هو ناحيةَ من الدار، وعلى أن عالياً لما كان بمعنى فوق أُجْرِي مُجْراه فجعل ظرفاً. وقرأ ٱبن محيصن وٱبن كثير وأبو بكر عن عاصم «خُضْرٍ» بالجر على نعت السُّنْدس «وَإِسْتَبْرَقٌ» بالرفع نَسْقاً على الثياب، ومعناه عاليهم [ثيابُ][1] سندسٍ وإستبرقٌ. وقرأ ٱبن عامر وأبو عمرو ويعقوب «خُضْرٌ» رفعاً نعتاً للثياب «وَإِسْتَبْرَقٍ» بالخفض نعتاً للسُّنْدس، وٱختاره أبو عُبيد وأبو حاتم لجودة معناه؛ لأن الخضر أحسن ما كانت نعتاً للثياب فهي مرفوعة، وأحسن ماعطف الإستبرق على السُّنْدس عطف جنس على جنس، والمعنى؛ عاليَهم ثيابٌ خُضْرٌ مِن سندسٍ وإستبرقٍ، أي من هذين النوعين. وقرأ نافع وحفص كلاهما بالرفع ويكون «خُضْرٌ» نعتاً للثياب؛ لأنهما جميعاً بلفظ الجمع «وإِسْتَبْرَقٌ» عطفاً على الثياب. وقرأ الأعمش وٱبن وَثّاب وحمزة والكسائيّ كلاهما بالخفض ويكون قوله: «خُضْرٍ» نعتاً للسُّندس، والسُّندس ٱسم جنس، وأجاز الأخفش وصف ٱسم الجنس بالجمع على ٱستقباح له؛ وتقول: أهلك الناسَ الدينارُ الصُّفْرُ والدرهمُ البِيضُ؛ ولكنه مستبعد في الكلام. والمعنى على هذه القراءة: عالِيهم ثِيابُ سُندسٍ خضرٍ وثيابُ إستبرقٍ. وكلهم صرف الإستبرق إلا ٱبن محيصن، فإنه فتحه ولم يصرفه فقرأ «وإستبرقَ» نصباً في موضع الجر، على منع الصرف، لأنه أعجمي، وهو غلط؛ لأنه نكرة يدخله حرف التعريف؛ تقول الإستبرق إلا أن يزعم [ٱبن محيصن][2] أنه قد يجعل علماً لهذا الضرب من الثياب. وقرىء «وَٱسْتَبْرَقَ» بوصل الهمزة والفتح على أنه سُمِّي بٱستفعل من البريق، وليس بصحيح أيضاً؛ لأنه مُعرَّب مشهور تعريبه، وأن أصله ٱسْتَبْرَكَ[3] والسُّندس: ما رَقّ من الديباج. والإستبرق: ما غَلُظ منه. وقد تقدّم[4].

---

(١) زيادة تقتضيها العبارة. (٢) زيادة من أ، ح. (٣) في الأصل إستبرق، وهو تحريف والتصويب من القاموس الفارسي. وفي الألفاظ الفارسية وشرح القاموس أصله: «استبره».
(٤) راجع ١٠/ ٣٩٧ و ١٧/ ١٧٩.

قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوا﴾ عطف على «وَيَطُوفُ». ﴿أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ وفي سورة فاطر ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَمِنْ ذَهَبٍ﴾ وفي سورة الحج ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾، فقيل: حُليّ الرجل الفضة وحُليّ المرأة الذهب. وقيل: تارة يلبسون الذهب وتارة يلبسون الفضّة. وقيل: يجمع في يد أحدهم سواران من ذهب وسواران من فضّة وسواران من لؤلؤ، ليجتمع لهم محاسن الجنة؛ قاله سعيد بن المسيّب. وقيل: أي لكل قوم ما تميل إليه نفوسهم. ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ قال عليّ رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ قال: إذا توجه أهل الجنة إلى الجنة مرّوا بشجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فيشربون من إحداهما، فتجري عليهم بنضرة النَّعيم، فلا تتغير أبشارهم، ولا تتشعث أشعارهم أبداً، ثم يشربون من الأخرى، فيخرج ما في بطونهم من الأذى، ثم تستقبلهم خَزنة الجنة فيقولون لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾. وقال النَّخعيّ وأبو قِلابة: هو إذا شربوه بعد أكلهم طَهَّرهم، وصار ما أكلوه وما شربوه رَشْحَ مِسْكٍ، وضَمَرت بطونهم. وقال مقاتل: هو من عينِ ماء على باب الجنة، تنبع من ساق شجرة، من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غِلّ وغشٍّ وحسدٍ، وما كان في جوفه من أذًى وقذر. وهذا معنى ما روي عن عليّ، إلا أنه في قول مقاتل عين واحدة وعليه فيكون فعولاً للمبالغة، ولا يكون فيه حجة للحنفي أنه بمعنى الطاهر. وقد مضى بيانه في سورة «الفرقان»[1] والحمد لله. وقال طَيِّب الجمَّال: صَلَّيْتُ خَلْف سهل بن عبد الله العَتَمة، فقرأ ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ وجعل يُحرِّك شفتيه وفمه، كأنه يَمصُّ شيئاً، فلما فرغ قيل له: أتشرب أم تقرأ؟ فقال؛ والله لو لم أجد لذته عند قراءته كلذته عند شربه ما قرأته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ أي يقال لهم: إنما هذا جزاء لكم أي ثواب. ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ﴾ أي عملكم ﴿مَشْكُوراً﴾ أي من قبل الله، وشكره للعبد قبول طاعته، وثناؤه عليه، وإثابته إياه. وروى سعيد عن قتادة قال: غفر لهم الذَّنْب وشَكَر لهم الحُسْنى. وقال

---

(١) راجع ٣٩/١٣.

مجاهد: «مَشْكُوراً» أي مقبولاً والمعنى متقارب؛ فإنه سبحانه إذا قبل العمل شكره، فإذا شكره أثاب عليه بالجزيل؛ إذ هو سبحانه ذو الفضل العظيم. روي عن ابن عمر: أن رجلاً حَبَشِيًا قال: يا رسول الله! فُضِّلتم علينا بالصُّوَر والألوان والنبوّة، أفرأيت إن آمنتُ بما آمنت به، وعملت بما عملت، أكائن أنا معك في الجنة؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده إنه لَيُرَى بياض الأسود في الجنة وضياؤه من مسيرة ألف عام» ثم قال النبي ﷺ: «من قال لا إله إلا الله كان له بها عند الله عَهْد، ومن قال سبحان الله والحمد لله كان له بها عند الله مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة»، فقال الرجل: كيف نهلك بعدها[1] يا رسول الله؟ فقال: «إن الرجل ليأتي يوم القيامة بالعمل لو وضعه على جبل لأثقله. فتجيء النعمة من نِعم الله فتكاد أن تستنفد ذلك كله إلا أن يلطف[2] الله برحمته». قال: ثم نزلت ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ إلى قوله: ﴿ومُلْكاً كَبِيراً﴾ قال الحبشيّ: يا رسول الله! وإن عينيّ لترى ما ترى عيناك في الجنة؟ فقال النبي ﷺ: «نعم» فبكى الحبشيّ حتى فاضت نَفْسه. وقال ابن عمر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يُدْليه في حفرته ويقول: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾ قلنا: يا رسول الله وما هو؟ قال: «والذي نفسي بيده لقد أوقفه الله ثم قال أي عبدي لأبيضنّ وجهك ولأبوِّئنّك من الجنة حيث شئت، فنعم أجر العاملين».

[٢٣] ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

[٢٤] ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

[٢٥] ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

[٢٦] ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾ ما افتريته ولا جئتَ به من عندك، ولا من تلقاء نفسك، كما يدّعيه المشركون. ووجه اتصال هذه الآية بما قبلُ أنه سبحانه لما ذكر أصناف الوعد والوعيد، بيّن أن هذا الكتاب يتضمن ما بالناس حاجة إليه، فليس بسحر

(١) في أ، ح، و: «بعد هذا». (٢) في ز، ط، ل: يتعطف.

ولا كَهانة، ولا شِعر، وأنه حقّ. وقال ابن عباس: أنزل القرآن متفرّقاً: آية بعد آية، ولم ينزل جملة واحدة؛ فلذلك قال «نَزَّلْنَا» وقد مضى القول في هذا مبيناً[1] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي لقضاء ربك. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: اصبر على أذى المشركين؛ هكذا قضيت. ثم نسخ بآية القتال. وقيل: أي اصبر لما حكم به عليك من الطاعات، أو انتظر حكم الله إذ وعَدَك أنه ينصرك عليهم، ولا تستعجل فإنه كائن لا محالة. ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً﴾ أي ذا إثم ﴿أَوْ كَفُوراً﴾ أي لا تطع الكفار، فروى مَعْمَر عن قتادة قال: قال أبو جهل: إن رأيتُ محمداً يُصلّي لأطأنّ على عنقه. فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾. ويقال: نزلت في عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة، وكانا أتيا رسول الله ﷺ يَعرضان عليه الأموال والتزويج، على أن يترك ذكر النبوّة، ففيهما نزلت: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾. قال مقاتل: الذي عرض التزويج عُتبة بن ربيعة؛ قال: إن بناتي من أجمل نساء قريش، فأنا أزوّجك ابنتي من غير مهر وارجع عن هذا الأمر. وقال الوليد: إن كنت صنعت ما صنعت لأجل المال، فأنا أعطيك من المال حتى ترضى وارجع عن هذا الأمر؛ فنزلت. ثم قيل: «أو» في قوله تعالى: ﴿آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ أوْكَد من الواو: لأن الواو إذا قلت: لا تطع زيداً وعمراً فأطاع أحدهما كان غير عاص؛ لأنه أمره ألا يطيع الاثنين، فإذا قال: ﴿لَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ فـ «أو» قد دلّت على أن كل واحد منهما أهل أن يُعصَى؛ كما أنك إذا قلت: لا تخالف الحسن أو ابن سيرين، أو اتبع الحسن أو ابن سيرين فقد قلت: هذان أهل أن يُتَّبعا وكل واحد منهما أهل لأن يُتَّبع؛ قاله الزجاج. وقال الفرّاء: «أو» هنا بمنزلة «لا» كأنه قال: ولا كفوراً؛ قال الشاعر:

لاَ وَجْدُ ثَكْلَى كما وَجَدْتُ وَلاَ ... وَجْـدُ عَجُـولٍ أَضَلَّهَـا رُبَـعُ[2]

أَوْ وَجْـدُ شيـخٍ أَضَـلَّ نـاقتَـهُ ... يَـوْمَ تَـوَافَـى الحجيجُ فـانـدفَعُوا

---

(١) راجع ١٣/٢٩. (٢) العجول من النساء والإبل: الواله التي فقدت ولدها، سميت بذلك لعجلتها في جيئتها وذهابها جزعاً، وهي هنا الناقة. والربع: كمضر؛ الفصيل ينتج في الربيع.

أراد ولا وجد شيخ. وقيل: الآثم المنافق، والكفور الكافر الذي يظهر الكفر؛ أي لا تطع منهم آثماً ولا كفوراً. وهو قريب من قول الفراء.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي صلّ لربّك أول النهار وآخره، ففي أوّله صلاة الصبح وفي آخره صلاة الظهر والعصر. ﴿وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُ﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء الآخرة. ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ يعني التطوّع في الليل؛ قاله ٱبن حبيب. وقال ٱبن عباس وسفيان: كلّ تسبيح في القرآن فهو صلاة. وقيل: هو الذكر المطلق سواء كان في الصلاة أو في غيرها. وقال ٱبن زيد وغيره: إن قوله: «وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً» منسوخ بالصلوات الخمس. وقيل: هو ندب. وقيل؛ هو مخصوص بالنبي ﷺ. وقد تقدّم القول في مثله في سورة «المزمل»[1] وقول ٱبن حبيب حسن. وجمع الأصيل: الأصائل والأُصُل؛ كقولك سَفَائن وسُفُن؛ قال:

ولا بأحسنَ منها إذ دنا ٱلأُصُلُ

وقال[2] في الأصائل، وهو جمع الجمع:

لَعَمْرِي لأَنْتَ البيتُ أُكْرِمُ أَهْلَهُ وأَقعدُ في أَفْيَائِهِ بِالأَصَائِلِ

وقد مضى هذا في آخر «الأعراف»[3] مستوفًى. ودخلت «مِن» على الظرف للتبعيض، كما دخلت على المفعول في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾.

[٢٧] ﴿إِنَّ هَٰؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾.

[٢٨] ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلاَءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾: توبيخ وتقريع، والمراد أهل مكة. والعجلة الدنيا ﴿وَيَذَرُونَ﴾ أي ويدعون ﴿وَرَاءَهُمْ﴾ أي بين أيديهم ﴿يَوْماً ثَقِيلاً﴾

---

(١) راجع ص ٣٨ من هذا الجزء.

(٢) قاله أبو ذؤيب الهذلي.

(٣) راجع ٧/ ٣٥٥.

أي عسيراً شديداً كما قال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يتركون الإيمان بيوم القيامة. وقيل: «وَرَاءَهُمْ» أي خلفهم، أي ويذرون الآخرة خلف ظهورهم، فلا يعملون لها. وقيل: نزلت في اليهود فيما كتموه من صفة الرسول ﷺ وصحة نبوّته. وحبهم العاجلة: أخذهم الرّشا على ما كتموه. وقيل: أراد المنافقين؛ لاستبطانهم الكفر وطلب الدنيا. والآية تعمّ. واليوم الثقيل يوم القيامة. وإنما سمّيَ ثقيلاً لشدائده وأهواله. وقيل: للقضاء فيه بين عباده.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ﴾ أي من طين. ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي خَلْقهم؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم. والأَسْر الخَلْق؛ قال أبو عُبيد: يقال فرس شديد الأَسْر أي الخَلْق. ويقال أسره الله جلّ ثناؤه إذا شَدَّد خَلْقه؛ قال لبيد:

سـاهِـمُ الـوجـهِ شـدِيـدٌ أَسْـرُهُ مُشْرِفُ الحارِكِ مَحْبوكُ الكَتِدَ[١]

وقال الأخطل:

مِـن كـلِّ مُجْتَنِـبٍ شَـدِيـدٍ أَسْـرُهُ سَلِسِ القِيادِ تَخالُهُ مُخْتَالاَ[٢]

وقال أبو هريرة والحسن والربيع: شددنا مفاصلهم وأوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب. وقال مجاهد في تفسير الأَسْر: هو الشَّرْج، أي إذا خرج الغائط والبول تَقَبَّضَ الموضعُ. وقال ٱبن زيد القوّة. وقال ٱبن أحمر يصف فرساً:

يَمشِـي بِـأَوظِفَـةٍ شِـدَادٍ أَسْـرُهَـا صُمِّ السَّنَابِكِ لا تَقِي بِالْجَدْجَدِ[٣]

وٱشتقاقه من الإسار وهو القِدّ الذي يشد به الأقتاب؛ يقال: أَسَرْتُ القَتَبَ أَسْراً أي شددته وربطته؛ ويقال: ما أحسن أَسْرَ قَتَبِه أي شدّه وربطه؛ ومنه قولهم: خذه

---

(١) ورد في «اللسان» مادة (حبك) أنشد بيت لبيد على هذه الصورة: مشرف الحارك محبوك الكفل (وكذلك هو في ديوانه)، ومحبوك الكفل: مدمجه. وفي مادة حرك أنشد الشطر:

مغبط الحارك محبوك الكفل

أما الشطر الذي في التفسير هنا فهو لأبي دواد وقد مر في ١٧/ ٣٢.

(٢) مجتنب: مفتعل من الجنيبة وهي الفرس تقاد ولا تركب، وكانوا يركبون الإبل ويجنبون الخيل فإذا صاروا إلى الحرب ركبوا الخيل.

(٣) الجدجد: الأرض الصلبة. ولا تقي: لا تتوقى ولا تتهيب.

بِأَسْرِهِ إذا أرادوا أن يقولوا هو لك كله؛ كأنهم أرادوا تَعْكِيمه[(١)] وشدّه لم يُفتح ولم يُنقص منه شيء. ومنه الأسير، لأنه كان يُكتف بالإسار. والكلام خرج مخرج الامتنان عليهم بالنِّعَم حين قابلوها بالمعصية. أي سَوَّيتُ خَلْقك وأحكمته بالقوى ثم أنت تكفر بي. ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ قال ابن عباس؛ يقول لو نشاء لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم. وعنه أيضاً لغيّرنا محاسنهم إلى أسمج الصُّوَر وأقبحها. كذلك روى الضحاك عنه. والأوّل رواه عنه أبو صالح.

[٢٩] ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾.

[٣١] ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ أي السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي موعظة ﴿فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ أي طَريقاً موصّلاً إلى طاعته وطلب مرضاته. وقيل: «سَبِيلاً» أي وسيلة. وقيل وجهة وطريقاً إلى الجنة[(٢)]. والمعنى واحد. ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ أي الطاعة والاستقامة واتخاذ السبيل إلى الله ﴿إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فأخبر أن الأمر إليه سبحانه ليس إليهم، وأنه لا تنفذ مشيئة أحدٍ ولا تتقدّم، إلا أن تتقدّم مشيئته. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «وَمَا يَشَاءُونَ» بالياء على معنى الخبر عنهم. والباقون بالتاء على معنى المخاطبة لله سبحانه. وقيل: إن الآية الأولى منسوخة بالثانية. والأشبه أنه ليس بنسخ، بل هو تبيين أن ذلك لا يكون إلا بمشيئته. قال الفرّاء: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ جواب لقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ ثم أخبرهم أن الأمر ليس إليهم فقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ ذلك السبيلَ ﴿إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ لكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً﴾ بأعمالكم ﴿حَكِيماً﴾ في أمره ونهيه لكم. وقد مضى في غير موضع.

---

(١) عكمت المتاع شددته، والعكام الخيط الذي يعكم به، وعكمت البعير شددت عليه العكم.

(٢) في ب، ز، ط: إلى الخير.

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي يدخله الجنة راحماً له ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ أي ويعذّب الظالمين فنصبه بإضمار يعذّب. قال الزجاج: نصب الظالمين لأن قبله منصوب؛ أي يدخل من يشاء في رحمته ويعذّب الظالمين أي المشركين ويكون ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ تفسيراً لهذا المضمر؛ كما قال الشاعر:

أَصْبَحْتُ لاَ أَحْمِلُ السِّلاَحَ وَلاَ ... أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا
وَالذِّئْبَ أَخْشَاهُ إِنْ مَرَرْتُ بِهِ ... وَحْدِي وأَخْشَى الرِّيَاحَ وَالْمَطَرَا

أي أخشى الذئب أخشاه. قال الزجاج: والاختيار النصب وإن جاز الرفع؛ تقول: أعطيت زيداً وعمراً أعددت له بِرا، فيختار النصب؛ أي وَبَرَرْتُ عمراً أو أبرّ عمرا. وقوله في «حم عسق»: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ والظَّالِمُونَ﴾ ارتفع لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فينصب في المعنى؛ فلم يجز العطف على المنصوب قبله فارتفع بالابتداء. وها هنا قوله: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً﴾ يدل على ويعذّب فجاز النصب. وقرأ أبان بن عثمان «وَالظَّالِمُون» رفعاً بالابتداء والخبر ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾. ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ أي مؤلماً موجِعاً. وقد تقدم هذا في سورة «البقرة»[1] وغيرها والحمد لله. ختمت السورة.